A. Shahin

جامعة الدول العربية

معهد الدراسات العربية العالية

محاضرات

عن

حافظ ابراهيم

حياته وشعره

ألقاها

أحمد الطاهر

[على طلبة قسم الدراسات الأدبية]

١٩٥٣

١٩٥٤

حافظ ابراهيم

جامعة الدول العربية
معهد الدراسات العربية العالية

محاضرات
عن
حافظ ابراهيم

حياته وشعره

ألقاها
أحمد الطاهر
[على طلبة قسم الدراسات الأدبية]

١٩٥٣

١٩٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم أعنى على الوفاء لحافظ ، فله فى عنقى منة لا أنساها ، عرفته وعرفنى وأحببته وأحبنى وشجعنى على التزود من الأدب العربى ، وأوصانى بالإيغال فيه . ومات رحمه الله فما وفاه الأدباء حقه من الذكر والإشادة بمنزلته من الأدب المصرى المعاصر .

يسر لى معهد الدراسات العربية العالية ، الذى أنشأته جامعة الدول العربية بالقاهرة ، سبيل الوفاء له ، فخصتنى بإلقاء محاضرات عن حافظ ، على طلبة قسم الدراسات الأدبية فيه ، فقمت بذلك ما وسعنى الجهد ، ابتداء من الثانى عشر من نوفمبر سنة ١٩٥٣ .

ولعل فيما جمعته من هذه المحاضرات نفعا للطلاب ووفاء لحافظ وشكرا للمعهد ؟

يناير سنة ١٩٥٤ أحمد الطاهر

« لا أعرف بين شعراء هذه الأيام شاعرا »
« جعلته طبيعته مرآة صافية صـــادقة »
« لحياة نفسه ولحياة شعبه كحافظ رحمه الله »

الدكتور طه حسين
(حافظ وشوقي)

دراسة الأدب الحديث

منهج

غايتنا :

أصبحت دراسة الأدب فى أمة من الأمم دراسة لذوق الأمة و إبانة لأقدار ثقافتها ومبلغ تأثرها بالحضارة ، وكشفا عما أخذت وما تركت من آداب الأمم الأخرى ، التى تتصل بها الأمة على أى وضع من أوضاع الاتصال . وجملة هذا دراسة لفكر الأمة وتطور تفكيرها .

و إذا اتجهنا إلى الشعوب العربية ، وأخذنا أنفسنا بدراسة أدبها ، فما ينبغى أن نفعل هذا دون أن نتساءل عن غايتنا من هذه الدراسة ، وهل هى لذلك المتاع الذى يجده العلماء حين يقفون أنفسهم على العلم والدرس ، أم هى للتزود من العلم على سعته تزوداً يقوى العقول و يحصنها ، فتصبح قادرة على خوض معارك الحياة دون أن يتبين المعلم ولا الطالب نوع المعركة ولا زمانها ولا مكانها . أم هى لغرض تترسم سبيله جامعة الدول العربية حين أنشأت هذا المعهد ، وجعلت رسالته دراسة الشئون العربية المعاصرة .

ولقد أفصح عن هذا الغرض السيد ساطع الحصرى مدير هذا المعهد ، فى خطابه الذى ألقاه فى أمسية يوم السبت ٧ من نوفمبر سنة ١٩٥٣ ، ولعلى قد أحسنت فهم مراميه ، إذا قررت أن دراسة الأدب العربى الحديث فى هذا المعهد ، يجب أن تكون غايتها تقريبا فى الأذواق وتواصلا فى الاتجاهات ، وتجاوبا فى المشاعر ، مشتركا ذلك كله بين هذه الأقطار العربية التى عبثت يد السياسة على أجيال ، بما بينها من أواصر وصلات — ودراسة الأدب الحديث فى جميع الأقطار العربية صالحة لأداء هذه

الرسالة، و بلوغ هذه الغاية ، إذا أخذ الأساتذة والطلاب أنفسهم بأن يصلوا فى بحوثهم ودراستهم بين الفن الذى يدرسونه ، وهو الأدب الحديث ، و بين الأحداث الجارية والأوضاع السائدة سواء أكانت سياسية أم اقتصادية أم دينية أم غير ذلك من الأوضاع التى جعلتها حضارة هذا القرن ، والتى بلغت من قوة التأثير مبلغاً تصيب به عقول الناس وقلوبهم ، فتعمل فيها عملاً واضحاً بيناً .

أدبنا الحديث :

لم يعد الأدب نزوعاً إلى الجمال الفنى فى الكلام ، ولم تعد رسالة الأديب أن يدير ما تيسر له من المعانى فى أسلوب له من صنعة البديع حظ موفور ، بل إن الأدب فى هذا العصر ملاءمة بين الجمال الفنى الخالد الذى لا يختلف فيه القدامى عن المحدثين ، و بين الذوق العصرى الماثل فى قلوب أهل العصر وعقولهم ، وهذا الذوق هو الذى يتطور و يتغير بالمؤثرات التى سلف القول فيها .

فالأدب على هذا الوجه يجب أن يمثل نفس الأديب ، وأن يكون منسجماً مع ذوق العصر الذى ينجم فيه . والأسلوب أو القالب الذى يفرغ فيه ، هذا الأدب يجب أن يتأثر أيضاً بذوق العصر . وهذا العصر الذى نعيش فيه لا يقبل على الألفاظ المصفوفة والفِقَرِ المسجوعة ، ولا على ما كان مألوفا فى القديم من تزويق وتنميق ، و إنما يقصد إلى الوضوح واصطناع اللفظ القوى الدلالة ، والعبارة التى تصيب المعنى من أطرافه جميعا دون مداورة أو معاناة أو تكلف ، ويجد من أذواق الناس استجابة وطمأنينة .

ولعل خير ما عبر به عن هذا القصد ما قاله الدكتور طه حسين ، حين ذكر لصديقه ما يريد من المثل الأعلى للشعر . قال : « هو هذا الكلام الموسيقى الذى يحقق الجمال الخالد فى شكل يلائم ذوق العصر الذى قيل فيه ، و يتصل بنفوس الناس الذين ينشد بينهم و يمكنهم من أن يذوقوا هذا الجمال حقا ، فيأخذوا بنصيبهم النفسى من الخلود » .

امتدت الحضارة الغربية وأساليب الحياة الغربية ووصلت إلى الشرق ، فغيرت ، على وناء ، فى عقول الشرقيين ووجوه تفكيرهم،واختلفت هذه الأمم الشرقية فى أقدار ما أخذت من هذه الحضارة ، وما تأثرت به فى أساليب حياتها ، فبعضها كان يغرف من بحر و بعضها كان يمتح من بئر ، ولكنها أخذت منها بنصيب على أية حال . ولكن أذواق هذه الشعوب العربية تخلفت أو تباطأت عن التأثر بهذه الحضارة ، وأنفقت فى هذا التخلف أو التباطؤ زمنا طويلاً ، ولذلك عشنا دهراً طويلاً فى حضارة غربية بأذواق شرقية . أو قل ، كنا غربيين محدثين فى حياتنا ، شرقيين قدماء فى تفكيرنا وفى أذواقنا ، وكان كذلك أدبنا : ففى أعقاب القرن التاسع عشر ، وفى مستهل القرن العشرين ، كان أدبنا لا يزال يمت إلى القديم بصلة قوية ظاهرة ، بل لقد كان أقرب إلى القدم منه إلى الجدة .

ولا تحسب أيها الدارس أن القديم منبوذ ، أو ينبغى أن يزرى به ولا يعتد بقدره ، ولا تحسب أننى أريدك على أن تكلف بالجديد دون القديم،أو أن تنصرف إلى الجديد وتصد عن القديم . كلا لا أريد هذا وما ينبغى لأحد أن يوصى بهذا . ولكننى حدثتك عن هذه الصلة التى يجب أن تقوم بين الأدب و بين عصره ، وما نسيت أن أذكر لك أن فى الأدب شعراً كان أم نثراً جمالاً خالداً يشترك فيه القديم والجديد ، تتداوله العصور والأمم ، دون أن يتحيف من جلاله أو ينتقص .

ولقد طالما ذكرنا الجمال والذوق فيما تحدثنا به إلى الآن ، ولا يبعد أن يسأل سائل ما هو الجمال وما هو الذوق، ولا أزعم أننى أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال . ولقد وقف موقف الحيرة التى أنا فيها الأستاذ محمد خلف الله عميد كلية الآداب بالاسكندرية إذ تساءل عن الجمال فى كتابه (من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده ص ١٢٠) . قال :

« ما هو ؟ ما صفاته وعناصره ، هل هو موضوعى تمكن مشاهدته وقياسه والاتفاق عليه أم هو ذاتى يختلف حسب مزاج سامعه أو رائيه » .

وهو حين عرض للذوق قال :

« إن علم الذوق فى عصرنا الحاضر قد أصبح جزءا من دراسة أوسع هى دراسة السلوك الإنسانى فى نواحيه العقلية ، أى دراسة المواهب الفطرية والمكتسبة فى الإنسان — دراسة العناصر التى تتألف منها شخصيته من غرائز وانفعالات وعواطف وإرادة ومزاج وذكاء وتفكير . . . دراسة العقل الواعى والعقل الباطن ، وأثر كل منهما فى الحياة والفكر والفن والدين والاجتماع . . . دراسة الإنتاج الفكرى وصلته بمنشئه ، ثم مسالكه إلى قلوب دارسيه ومتذوقيه » .

هذا القول واضح الدلالة على ما يؤهلك لفهم المراد من كلمة الذوق ، وإن لم يكن تعريفاً محددا للذوق ، وما ينبغى أن يكون هناك تعريف للذوق ما دام الذوق إحساساً لا مقياساً .

دراستنا :

نحن نتصوب إلى دراسة شاعر من المحدثين هو الشاعر المصرى « محمد حافظ إبراهيم » . فما سبيلنا فى دراسته ، وما منهاجنا فى نقده ؟

ينبغى فيما أرى أن ندرس الشاعر نفسه قبل كل شىء . . ندرس حياته الزمنية ، كيف عاش وماذا وقع له فى حياته من الأحداث ، وما هى البيئة التى عاش فيها ، وكيف كان اتجاه الفكر فى عصره ، وما هى الأحداث والمؤثرات التى كانت عاملاً مسيطراً على الفكر أو الرأى العام فى عصره . ثم ندرس آثار هذا كله فى نفس الشاعر ، كيف عملت فى تكييف إحساسه وفى عواطفه وفى وجدانه وفى تفكيره ، ثم ننتقل بعد ذلك إلى شعره لعلنا نجده مرآة صافية يتجلى فيها كل مادرسنا من حياة الشاعر ومن عواطفه . ونستطيع بعبارة أوجز أن نقول إننا ندرس حياة الشاعر الزمنية ، ثم حياته الوجدانية ، ثم حياته الشاعرية ، ولعلنا نجد بين الثلاث تجاوباً وتلاقياً .

أحسب أن هذه الطريقة هى التى أرادها الدكتور طه حسين ، حين قال فى حديث الأربعاء (ج ١ ص ٢٢٢ طبعة الحلبى) .

« الشاعر يجب أن يتمثل فى شعره إلى حدٍّ ما . فإذا كان الشاعر مجيداً حقاً ، فشعره مرآة نفسه وعواطفه ومظهر شخصيته كلها بحيث تقرأ قصائده المختلفة فتشعر فيها بروح واحد ونفس واحد وقوة واحدة . وقد يختلف هذا الشعر شدة وليناً و يتباين عنفاً ولطفاً ، ولـكن شخصية الشاعر ظاهرة فيه محققة للوحدة الشعرية التى تمـكنك من أن تقول هذا الشعر لفلان ، أو هو مصنوع على طريقة فلان » .

نخرج من هذا على أن أحكامنا على الشعر يجب أن تصدر مستنيرة بالاضواء التى تبعثها حياة الشاعر وشخصيته وعواطفه . وهى بذلك مقيدة بالزمن الذى عاش فيه هو — لا نحن — و إذا حاولنا أن نحكم على الشاعر بأحكام يمليها الفكر الذى نعيش فيه نحن — لا هو — كان حكمنا بعيداً عن النصفه مجافياً لأصول النقد .

حيـــاة حافظ

١

ألفنا أن نبحث فى تراجم الشعراء عن السنة التى ولدوا فيها والتى انتقلوا فيها إلى دار البقاء . وأن نجهد فى تعرف يوم الميلاد وتحديده وما أحسب أن فى هذا غناء ومنفعة وإن كان فيه متاع وطرافة ، وإشباع لشهوة النفس فى تعرف الحقائق على أدق ما تـكون المعرفة . وباحث الأدب قانع بأن يعرف عن بعض الشعراء والأدباء فى أى قرن عاشوا ، لاتهمه السنة ولا الشهر ولا اليوم الذى ولدوا فيه، فما كانوا شعراء يوم ولدوا ولا عام ولدوا ، وهو قانع بأن يعرف العقد من القرن الذى ولد فيه بعض الشعراء ليحقق حادثاً بعينه ، أو واقعة تغير من أوضاعها عشرات السنين أو تعين على تحقيقها عشرات السنين . أما العناية بيوم ممات الشاعر فليس له شأن فى مجال البحث الأدبى إلا حين نعرض للبحث عن شاعرين أيهما مات قبل الآخر أو حين تعرض لنا قطعة من الشعر أو من النثر يتحقق تاريخها وتنسب إلى شاعر ، ونريد أن نستوثق من ذلك فنتجه إلى تاريخ وفاته ، إن ثبت لنا على وجه التحقيق أو التقريب ليكون عونا على تحقيق ما عرضنا له .

وها نحن أولاء نبحث عن مولد حافظ ، نريد أن نعرف يوم مولده بالتحقيق وما نجد إلى ذلك سبيلا ، فالأستاذ أحمد أمين وصاحباه فى مقدمتهم لديوان حافظ ، يقولون إنهم بحثوا فى سجلات المواليد منذ عام ١٨٧٠ إلى عام ١٨٨٠ فلم يعثروا على اسم حافظ ، وقد اختاروا عام ١٨٧٠ مبدأ للبحث جرياً وراء من ادعوا أن حافظاً ولد يوم ٤ فبراير سنة ١٨٧٢ ، وأولئك اعتمدوا على أن كشفاً طبياً تعرض له حافظ إذ أريد استخدامه فى دار الـكتب ، قرر أن سنه تبلغ تسعاً وثلاثين سنة. وكان الـكشف الطبى يوم ٤ فبراير سنة ١٩١١ . قال الأساتذة : «وهذا سبب واه كما ترى» . ونحن لو قدرنا أن حافظاً ولد حول هذا التاريخ ، فما يغيب عنا أن الناس إذ ذاك ما كانوا يعنون

بتسجيل مواليدهم ولا موتاهم ، على أننى على قلة اعتدادى بضبط هذا التاريخ عرض لى بيت من الشعر لحافظ قاله فى سنة ١٩٢٩ رجحت معه أن حافظاً ولد فى سنة ١٨٦٩ ذلك : —

وقد وقفت على الستين أسألها أسوّفت أم أعدت حر أكفانى

من قصيدة يحيي بها الشام فى حفل أقيم بالجامعة الأمريكية ببيروت مطلعها :

حيّا بكور الحيـا أرباع لبنان وطالع اليمن من بالشام حيّانى

فلنقل لمن أراد أن حافظاً ولد سنة ١٨٦٩م : ومن يدرى لعل اسمه فى ثبت من ولدوا فى هذا العام فى مدينة ديروط بالوجه القبلى (مديرية أسيوط) وحافظ يقول إنه ولد فيها فى (ذهابية) راسية بالنيل .

وكان أبوه إبراهيم أفندى فهمى ، من المهندسين الموكلين بقناطر ديروط ، وكان مصرياً صريحاً فى مصريته . أما والدته فكانت من أسرة تمت إلى الجنس التركى أو ما يقارب الجنس التركى من تلك الأمم الجركسية . ومات الوالد وحافظ طفل فى الرابعة ، فانتقلت به والدته إلى القاهرة ، وأقامت عند أخيها محمد أفندى نيازى المهندس . فتولى أمره وقام بتربيته وكان مقامهم بحى المغربلين ، وهو البقعة الممتدة إلى الجنوب الشرقى من باب زويلة (بوابة المتولى) صوب قلعة الجبل . وألحق محمد حافظ إبراهيم بمدرسة أولية هى المدرسة الخيرية وكانت قريبة من القلعة . ثم أدخل مدرسة القربية الابتدائية وكانت فى ذلك العهد تشارف باب زويلة ، ثم التحق بمدرسة المبتديان القريبة من حى السيدة زينب ، ثم المدرسة الخديوية الثانوية الواقعة بدرب الجماميز ، ولم يطل به المقام فى هذه الأخيرة إذ انتقل خاله إلى طنطا إذ كان يعمل مهندساً للتنظيم بها .

وعاش الفتى فى طنطا عيشاً قوامه الفراغ إن صح أن يكون الفراغ قواماً لشىء — فراغ من المال ، إذ لم يخلف له أبوه شيئاً ، ولم تكن أمه ميسورة الحال ، وما كانت الأم وابنها إلا حميلة على محمد أفندى نيازى ؛ وفراغ من العلم فما بلغ حافظ من التعليم مبلغاً صالحاً ؛ وفراغ من العمل فما كان أهلاً لعمل يزاوله أو يشغله ؛ وفراغ من الجاه فما كان

الجاه إذ ذاك إلا وقفاً على أسر لها من المال حظ موفور أو من السلطان قدر واسع أو من الجنسية التركية مائة وشيجة . وحافظ لم يكن فى شىء من ذلك .

ومدينة طنطا إذ ذاك ولا تزال مثابة العلم فى الوجه البحرى . والجامع الأحمدى فيها جامعة كبيرة يحج إليها الطلاب من أنحاء الشمال والشرق والغرب . وكانت الدراسة إذ ذاك فى المعاهد الدينية ومنها الجامع الأحمدى ، تجرى على النسق القديم الجامعى . فللطالب المنتسب إلى المعهد أو غير المنتسب ، أن يجلس إلى الدرس متى شاء وأن يختار من الأساتذة من يشاء . وله فى هذا الخيار وفى هذه الحرية ما يقوِّم شخصيته و يطمئن نفسه و يحفز استعداده العلمى و يعقد الصلة الفاضلة بينه و بين أستاذه الذى ارتضاه . كل ذلك متى كان الطالب مستعداً بطبعه وعقله لتلقى العلم والمثابرة عليه .

فعل حافظ ما يفعله سائر الناس ممن يكون لهم حظ من العرفان ضئيل . فانتظم فى حلقة من حلقات الدرس بالجامع الأحمدى ، وكان ينتقل من حلقة إلى أخرى كما يشاء له مزاجه . وفى هذه السن التى تشارف الثامنة عشر ، أكب حافظ على دواوين الشعر يستظهر منها المختار و يقضى فى ذلك عامة النهار . فإذا احتواه الليل جلس إلى الطلاب فى حلقاتهم السامرة يروى لهم مما حفظ شيئاً كثيراً ، و يستزيدونه إنشاداً ورواية وراض نفسه على الشعر واستذكاره حتى جرى بالشعر خاطره وترجم عنه لسانه . وكان يصل ما انقطع من حبل روايته للشعر القديم ، بما يوحى به خاطره من شعر لفَّقه تلفيقاً ، و يزعم أن الشعر كله للقدامى الذين يروى عنهم فينال شعره مما نالت روايته من إعجاب ، ويقوم الفتى سعيداً مغتبطاً بهذا التلفيق و بهذا التوفيق .

وضاق حافظ ذرعاً بهذه الحياة الفارغة وأحس أن خاله قد ضاق به ذرعاً ، فكتب إليه البيتين الساذجين :

ثقلت عليك مؤونتى إنى أراها واهيـــــة
فافـــرح فإنى ذاهب متوجه فى داهيـــة

وهو نظم خفيف لا يوزن بميزان الشعر ، ولكنه يدل على الكثير من روح هذا الفتى ومن إحساسه ومن استعداده ومما كان يشغل خاطره وهو فتى فى طراءة السن .

وذهب وأقام فى منزل أحد طلبة العلم بالجامع الأحمدى، ولم يلبث أن عاد إلى منزل خاله . و بدا له أن يشتغل بالمحاماة ، وكانت فى ذلك العهد مهنة لا تحتاج إلى تحصيل علم أو حيازة شهادة ، إنما عمادها طلاقة اللسان وقوة الحجة وجرأة الدفع وجهارة الصوت . وعند حافظ من هذا شىء كثير فلقى حافظ نجاحاً فى كثير من القضايا التى تمرس بها .

ولكن هذه النفس الممرورة البائسة اليائسة ، قد ترسبت فيها خلال منها الضيق بكل شىء ، وسرعة الملال وحب الانتقال من حال إلى حال ، والبرم بكل قيد من هذه القيود التى تفرضها الحياة على الناس أو يفرضها الناس على الحياة . وتنقل حافظ من مكتب الشيخ الشيمى المحامى ، إلى مكتب أبى شادى إلى مكتب عبد الكريم فهيم . ثم ترك مهنة المحاماة وقد أفل نجمه فيها بائساً يائساً كما كان وكما سيكون .

ثم التحق بالمدرسة الحربية بالقاهرة وكانت تستقبل عهداً جديداً توسعت فيه أرجاؤها . فاغتنم حافظ هذه السعة ، وقد رأى كل مجال يضيق به . وتخرج من المدرسة الحربية عام ١٨٩١ وسنه إذ ذاك على ما أعتقد ٢٢ سنة . وظل حافظ بالجيش ثلاث سنين وشهرين وأياماً . ثم التحق بالبوليس ، وكان معهوداً أن يختار ضباط من الجيش ليقوموا بأعمال البوليس الذى لم تنشأ له بعد مدرسة خاصة . وظل حافظ بالبوليس سنة وخمسة أشهر وثمانية أيام ، برم به البوليس وضاق ذرعاً بأعماله الشاذة وسلوكه المستهتر بكل شىء . وقد روى لنا رحمه الله قصة قال إنها كانت سببا فى إعادته من البوليس إلى الجيش قال :

« كنت نائماً فى بيتى و إذا برسالة من شيخ البلد فى قرية من قرى الشرقية — لعلها الإبراهيمية — تقول (وقعت حائط وزهقت أرواح) . فانتقلت بغلس من الليل راكباً جوادى حتى وصلت إلى القرية . وراعنى أن وجدت جداراً قد انقض حقاً وقتلت تحته ثلاث دجاجات . قلت لشيخ البلد أين الأرواح التى زهقت فقال متلعثما : والله يا سيدى أنا تشاحنت مع نسائبى وحلفت بالطلاق لأحضر البوليس

إلى هنا . وأخذت ألتمس الوسيلة لذلك حتى علمت أن جداراً قد وقع وماتت تحته ثلاثة أفراخ ، فأرسلت هذه الرسالة ليهرع إلينا البوليس فأبر بالقسم العظيم — قال حافظ والله لتكونن روحك إحدى هذه الأرواح التى زهقت ، كما تزعم ، وانهال على الرجل ضرباً حتى كاد يموت أو كاد ينفق كما كان يقول حافظ رحمه الله .

وعاد حافظ ضابطاً بالجيش ولكن محالاً إلى الاستيداع ، وظل كذلك خمسة أشهر ثم أعيد إلى الخدمة العاملة بإدارة التعيينات . وسافر إلى شرق السودان وظل هناك أربع سنوات وشهرين . ثم أحيل إلى الاستيداع مرة أخرى إذ اتهم بتأليب الضباط المصريين على رؤسائهم الإنجليز ، وبتأريج نار الفتنة والعصيان بين ضباط الجيش . ضاق حافظ كعادته بالجيش وضجر كتشنر ورؤساء حافظ من الضباط المصريين والإنجليز ، مما لقوا منه من عبث واستهانة بالنظم . وظل عاطلا فارغاً فى الاستيداع ثلاث سنوات ونصف سنة . ثم أحيل إلى المعاش فى أعقاب سنة ١٩٠٣ وكان ذلك آخر عهده بالحياة العسكرية .

وهنا نلقى حافظاً مرة أخرى . تلقاه عاطلا ممروراً يائساً محسوراً فقيراً مملقاً . ولكنه شاعر أديب وفى الأدب متعة للنفس وطمأنينة للقلب . وقضى سبع سنين كان يسميها العجاف . انطوت فيها نفسه على يأس من الإنجليز أصحاب السلطان فى الجيش وفى غير الجيش ، وأمل فى القصر ، ولكنه بعيد المنال ، وثقة بالإمام محمد عبده لعله بالغ به غاية تحمد عقباها . ولكن يد الأقدار تعصف بمعقد أمله ، فينتقل الإمام إلى الرفيق الأعلى فى عام ١٩٠٥ . فتنقطع بحافظ الأسباب وتتوزع نفسه حسرات .

وظل على هذا الحال إلى أن كانت سنة ١٩١١ ، إذ أفاء عليه أحمد حشمت باشا نعمة وظيفة قدرها ثلاثون جنيهاً فى الشهر ، ينالها من دار الكتب المصرية ويظل فيها أكثر من عشرين عاماً بقليل ، إلى أن يخلعها عنه اسماعيل صدقى باشا ، إذ كان حافظ قد أطلق فيه لسانه ، كما فعل أكثر الناس فى عهد رئاسته للحكومة إذ ذاك . ولم يعش حافظ بعد إحالته إلى المعاش غير أربعة أشهر ، إذ مات فى يوم الخميس ٢١ من يولية سنة ١٩٣٢ .

٢

تلك هى الحياة الزمنية لحافظ أو الحياة التى نبحثها ، نتقفى مر السنين وما يقع للشاعر فيها من أحداث ، وما يوجهه إليه فيها الزمن من مسارب ومسالك . والذى يعنينا من هذا السرد التاريخى هو الأثر الذى تركته هذه الحياة فى تكوين شخصية حافظ وفى تكوين خلقه ثم فى شعره .

وينبغى على هذا ، أن نرسم صورة لهذا الشاعر ، على ضوء حياته الزمنية ، لنرى فيها ما يصاغ وما يتكون من خلقه وطبعه وتفكيره وميوله ، وما إلى ذلك مما يعنى به اليوم علماء النفس الذين يصلون برباط وثيق بين البيئة وأحداث الحياة، وبين تكوين الشخصية وتكييف الطبع وتوجيه السلوك والتفكير .

هو طفل يتيم فقير حرم حنان الأب ، وحرم من جو الأسرة الصالحة المستقرة ، التى تستطيع أن تعتمد على نفسها فى كسبها وفى سيرها قدماً فى الحياة .

وشب فحرم من التعليم ولم ينل منه قسطاً وافراً ، وتولى تنشئته أو جهد فى تنشئته خال له . وهذا الخال يضيق صدره بعصيان الفتى و بعبثه و باستهانته بأقدار الأشياء ، والفتى يفسر ضيق الصدر بأنه استثقال للمؤونة وكراهية لشخصه وبرم بتكاليف عيشه وأعباء تربيته . هذه ظروف تحيط بالفتى فتجعله شاعراً بمرارة الحرمان ، مبغضاً للمجتمع قلقاً فيه ، شاعراً بنقص فى منزلته عن منازل الناس .

ووجوه الكسب مغلقة فى وجه الفتى ، لأنه فقير لا يحمل شهادة ولا يعتصم بنسب أو حسب .

ويشب الفتى فى قلب القاهرة المعزية المصطبغة بألوان الحياة القاهرية الشعبية الصميمة ، التى لا نحسن التعبير عنها بغير اللفظ العامى المألوف « الحياة البلدية » فهذا الحى ، حى المغربلين والقربية والغورية ودرب الجماميز ، بأزقته الضيقة ودروبه المظلمة ومبانيه المتواضعة فى الجمال الفنى الشامخة بعراقتها فى القدم . هذا الحى هو الذى يمثل

القاهرة أصدق تمثيل . فيه الحياة المصرية الصريحة فى مصريتها ، الصاخبة فى مضطربها . فيه المقاهى الشعبية أو البلدية — فقد يحلو لنا استعمال هذا اللفظ — العامرة الساهرة ، وفيه مجتمع أهل النكتة المصرية الساخرين بكل شىء فى الحياة ، المستهينين بكل شىء وإن عظم وجل المتلهفين المال يصل إلى أيديهم ولو بعد كد وجهد .

وفى هذا الحى أضرحة المشايخ الصالحين والأولياء المقربين يلوذ بهم العامة وغير العامة ، تبركا والتماسا لطمأنينة النفس . ويتخذ الشبان وطلبة العلم ساحات مساجدهم مثابة للدرس والاستذكار والجدل العلمى . فهنا مسجد الإمام الحسين بن على وهنا جامع الفاكهانى وهناك جامع المردانى وهناك جامع المؤيد وفى نهاية المطاف بدرب الجماميز مسجد السيدة زينب ، وحول هذه المساجد شراذم من المتسولين وأدعياء الطريق والدراويش وأدعياء الولاية والقربى من الله والوسيلة لأنبيائه ، أولئك يمر بهم أهل القاهرة ويهرع إليهم من فى الأرباض غداة وعشيا . فمنهم من يرثى لحالهم وتأخذه مظاهرهم ، فيدس فى أيديهم صدقة يحتسبها عند الله . ومنهم من يستنكر حالهم ولا تخدعه مظاهرهم ويرى فيهم صورة ساخرة من صور الحياة فيتخذهم أداة للتندر والنكتة البارعة المقذعة ، يرسلها عليهم وعلى من يعطف عليهم فى غير حذر ولا تورع .

ثم يرحل الفتى إلى طنطا فيجد فيها هذا المشهد ، أوسع مجالا وأفسح مضطربا وأكثر ازدحاما ، فالمسجد الأحمدى المنسوب إلى السيد أحمد البدوى تتعلق به حياة خاصة لفئة من الناس لا أحسب أن لها نظيراً فى أى بلد آخر ، اللهم إلا فى دسوق حول مسجد سيدى ابراهيم الدسوقى . فالأدعياء والدراويش والمجاذيب ومن يخدع بهم ومن لا يخدع ، والتجار المرتبطة أرزاقهم بالمولد الكبير والمولد الرجبى وطلبة العلم الواردين من أقصى شمال القطر وأبعد أرباض الشرقية وأغوار البحيرة . أولئك جميعا يشتركون فى حياة خاصة مصرية ريفية خالصة فى مصريتها ، عليها مسحة من طبائع أهل المدن ومميزاتهم .

انصب عليهم حافظ من القاهرة فى سن المراهقة وفى غضارة الشباب ، فوجد فيهم صورة من الحياة القاهرية تنقصها كثرة المقاهى ، وزيد عليها حياة

تمت إلى الدين بصلة . فينغمس فى هذه الحياة إلى حين و يأخذ منها بطرف ، و يحاول الاستقرار فيها والاطمئنان إليها ، ولكن لا يوفق فيما يحاول فيسخر منها حينا و يضيق بها أحيانا ، وهو بين سخريته وضيقه تنطبع فى نفسه صور وتتكون له طباع .

ثم ينتقل إلى حياة أخرى حبيسا فى المدرسة الحربية ، جنديا مغلوبا على أمره . عليه أن يطيع وليس له أن يطاع ، وعليه أن يخضع لكل أمر ولكل نظام وما أكثر الأوامر والنظم وما أقساها . ولا يستطيع أن يرسل نفسه فيما ألفت من حرية وانطلاق.

و يجتمع فى المدرسة الحربية بشبان لكل واحد منهم أسرته المعروفة ، منهم من يمت إلى الأسر التركية النابهة الذكر فى حياة مصر إذ ذاك ، ومنهم من يمت إلى الأسر الريفية صاحبة العراقة فى الأصل والجاه والمال ، أما هو فليس له من ذلك قليل ولا كثير .

ويرى فى المدرسة الحربية جوا يسيطر عليه اللون الإنجليزى الظافر بالطغيان على اللون الفرنسى الحائل ، وكلاهما قد غلب اللون التركى المتشبث بالبقاء الممتز بما بينه و بين الخلافة العثمانية من صلة . والألوان الثلاثة تحاول أن تمحو اللون المصرى الحبيب إلى نفس حافظ ، والذى ألفه ونشأ بين أعطافه ، منذ تفتحت عيناه على الدنيا .

فيضطرب الفتى بين هذه الألوان و يظل فى المدرسة الحربية يسخر من هذه الحياة حينا و يسخط عليها أحياناً ، ولكنه كاظم غير قادر على الإفصاح . وهو بين سخريته وسخطه تنطبع فى نفسه صور وتتكون له طباع . ثم يزج به فى زمرة الضباط فى مصر والسودان فيجد أحزاباً وشيعا . هذا فريق منهم يمت إلى التركية صاحبة السلطان الروحى والسياسى فيعلو بها و يفخر وهذا فريق يناصر الإنجليز أصحاب الكلمة العليا ، يباهى بذلك و يطغى . وهذا فريق يناصر الخديوى فيما شجر وما يشجر من خلاف بينه و بين كرومر وكتشنر ، وفيما شجر وما يشجر بينه و بين السلطان التركى ولكل وجهة هو موليها .

و يضطرب فتانا بين هذه التيارات والنزعات ، ولا يستقر على حال . وتبدأ الفكرة السياسية تتبلور فى نفسه لتتخذ شكلا أو لتظل متميعة حائرة لا شكل لها

وكان طبيعيا أن لا يستقر الفتى فى حياته العسكرية ، فيظل كارها مكروها يحاول أن يستغيث بأهل الحول والطول لإنقاذه من قسوة الجندية وجفاف السودان، وآلام الغربة وأغلال الظلم وقيود تحد من حريته وانطلاقه . إلى أن يتاح له ذلك فينطلق منها إلى القاهرة وهو خالى الوفاض لا يملك إلا قريحة الشعر ولكنه يريد أن يعيش بها وعليها وما فيها من غناء .

يرتمى فى أحضان طبقة من الناس تقدر الأدب تقديرا يتفاوت قوة وضعفاً ، وتقدر الفتى لخفة روحه ورقة ظله وسخريته من الحياة وتندره على أوضاعها واستهانته بتصاريفها . وهو هذا الشاب الذى يملأ المكان بشرا وسرورا ومرحا ، ويجود عليه بعض هذه الطبقة من الناس جودا لا يفسده من ولا أذى ولا تسبقه ذلة ولا استجداء .

ويتلفت الفتى الشاعر ليجد سوقاً للأدب تنفق فيها بضاعته ويجد فيها متنفساً لكربه ومجالاً لانطلاق حريته فإذا أمامه ثلاث أسواق : سوق مصرية أزهرية لا تعنى بنشر الأدب وإذاعته، أو لا تجد الوسيلة لنشر الأدب وإذاعته. تنطوى على نفسها وتقنع بالرواية والحفظ وإجادة الإنتاج وتنفق جهداً كبيراً فى نقد الأدب القديم نقداً فيه كثير من التزمت والتقيد بما جرى عليه القدماء فى نقد الشعر . فقواعد النحو والصرف وأقيسة البلاغة وأصول اللغة تسيطر على الناقد . وتخضع جمال الشعر لأحكامها أو تقدر جمال الشعر بمقاييسها. والفتى الشاعر لا يملك من هذه البضاعة كثيراً ولم يحصل من العلم بها قدراً صالحاً يؤهله لمجاراة أهل هذه الطبقة فى أساليب تقديرهم للأدب . ولكن له بهم صلة قديمة، ألم يجلس إلى حلقات الطلاب والأساتذة فى الجامع الأحمدى ؟ ألم يشارك فى جدل طلبة علم النحو وأساتذته حول (فاء السببية) و (حتى) وأوجه قراءة البسملة ؟ ألم يقرأ معهم ابن عقيل والأشمونى ؟ ألم تتردد على سمعه أسماء سيبويه والكسائى وابن جنى ؟ ألم يحفظ معهم متن الخريدة وما عليه من شروح وما حول أبياته من جدل فى الفهم والدلالة ، وهو بعد هذا وقبله وثيق الصلة بالأستاذ الإمام محمد عبده ، معجب به منصرف إلى هذا الإعجاب بكل قواه ! لهذه الذكريات التى انطبعت

فى نفسه لا يفتر حافظ عن الاتصال بالأزهريين ، ولاينى عن حضور مجالسهم ، ولـكنها لا تشفى غليله .

ويجد سوقاً أخرى اتصلت بالقصر وتزلفت إليه وظفرت بالقربى منه ، وهذه امتنعت على حافظ وصدت عنه لا لأن سدنتها من أقصى حافظاً عن أستارها ، ولـكن لأن حافظاً قد أحاطت به ظروف سـياسية منذ طرده من السودان ، ومنذ تعلقه بالأستاذ الإمام ، ومنذ مناصبته العداء للإنجليز جعلته غير مرغوب فيه فى القصر وأغلقت فى وجهه السبيل إليه . وحافظ بمظهره وأسلوب حياته وقربه من الدهماء فى معيشته وسلوكه ، و بعـده عن الحرص على أوضاع القصور وتقاليدها لايصلح لأن يدخل من أبوابها أو يكون من رجالها المقربين .

وظفر حافظ بسوق ثالثة تذيع الأدب وتنشره فى الجرائد والمجلات ، وتـكسب الأديب شهرة وتيسر له العيش . وهذه السوق يقوم عليها الشوام . والشوام لفظ كان ولا يزال يدل بين أهل مصر على اللبنانيين والفلسطينيين والسوريين . و يرتبط حافظ برباط الألفة والمودة الصادقة مع الشوام ، على تباين مواطنهم ومذاهبهم ، فيجد صدراً رحباً من أصحاب الأهرام ومن أصحاب المقتطف الدكتورين فارس نمر و يعقوب صرّوف . ومن سليم سركيس وداود عمون وشبلى شميّل وخليل مطران وجورجى زيدان وأمين تقى الدين وغير هؤلاء ، ممن كانت أسماؤهم لامعة فى سماء الأدب المنشور فى ذلك العصر . ويغرق الشوام فى حبه والارتباط به ، و يغرق حافظ فى حبهم والارتباط بهم ، حتى يقيموا له حفلات التـكريم . ويطلق حافظ الشعر القوى المخلص فى التغنى بجمال بلادهم والاعجاب بجهدهم وكدهم فى سبيل الرزق . و يرتفع اسمه فى سماء الأدب العربى فى مصر وفى الشرق العربى . ولا يفتر حافظ عن إرسال الشعر قويا رصينا فى كل حدث من الأحداث تعنى به هذه البلاد التى تجمعها رابطة اللغة العربية . وهنا تتولد فى نفسه فـكرة الوحدة العربيـة ورابطة الشعوب العربية ، وتتردد فى خاطره هذه الأسباب والعلل التى قعدت باللغة العربية عما كان ينبغى أن يكون لها من منزلة وشأن .

فإذا بلغ حافظ هذه المنزلة من ذيوع الاسم وانتشار الذكر ، وتحدثت عنه المجالس والصحف والمجلات ، وجد السبيل مفتوحة أمامه ممهدة له ، ليطرق مجالس العلماء الأزهريين وأبواب الأعيان المشهورين وندوات الأدباء الظرفاء من المصريين وغير المصريين ، لا يجد فى ذلك حرجاً ولا عناء بل يجد ترحيبا ولقاء حسناً .

هذه مجالس الشيخ الإمام محمد عبده حافلة بالعلماء الأزهريين ، من أصدقاء الشيخ ومن تلاميذه ومن غير أصدقائه وتلاميذه . فيهم الشيخ عبد الكريم سلمان والسيد على الببلاوى والشيخ محمد بخيت والشيخ سليم البشرى والشيخ محمد حسنين مخلوف والشيخ محمد شاكر والشيخ على يوسف وغير أولئك كثير .

وهذه طبقة الأعيان والزعماء فيهم محمود باشا سليمان ، وسليمان باشا أباظة ، ومحمد بك بيرم ، وأحمد حشمت باشا ، وسعد زغلول باشا ، وقاسم أمين بك ، ومصطفى كامل باشا .

وهذه طبقة الظرفاء الأدباء الذين يفسحون المجال لحافظ ، ويجدون فيه الأنيس الظريف والشاعر الخفيف الظل . يتبادلون معه النادرة ويتراشقون بالنكتة ، فيهم محمد البابلى وإمام العبد وحفنى محمود سليمان وعلى محمود سليمان وعبد العزيز البشرى وسليمان فوزى .

وتظل هذه الطبقات من الناس تتلقى حافظا أو تتلقفه ، ويسلمه جيل منها إلى جيل حتى ينتهى أجله .

وبين هذه الطبقات وهذه الأجيال ، يعلو ذكر حافظ ويرتفع اسمه ويخلد ذكره كشاعر مصرى صميم فيه كل هذه الخصائص التى تحقق له اسم الشاعر المصرى الصميم .

ثم يسدى إليه أحمد حشمت باشا ناظر المعارف ، نعمة لا ينساها حافظ ، فيختار له منصبا حكوميا فى دار الكتب المصرية التى كانت معروفة إذ ذاك بالكتبخانة الخديوية فيتغير مجرى حياته من حيث نظامها وجريانها فى وضع رتيب ، كالذى يأخذ به أنفسهم موظفو الحكومة . أما نفسه وتفكيره وطبعه فلا يتغير منها شىء .

بل إن الملل وضعف المثابرة والاستهانة بالعرف والتقليد ، كل ذلك لا يزال قائماً فى طبع حافظ ينمو ويبدو فى حرية وانطلاق . ولقد كان يقضى أكثر وقت العمل فى القهوة العثمانية ، المواجهة لدار الكتب محل عمله . يشرب الشيشة أو يدخن السيجار ، فإذا ألم بمكتبه ساعة أو بعض ساعة قال لخادم بالقهوة « إذا سأل عنى سائل فقل له راح الكتبخانة شوية وجاى » ، كأن مقامه الأصيل بالقهوة وإلمامه القصير بدار الكتب .

وتتقدم به السن فيصاب بداء المعدة وتكثر وساوسه ، ويترقب الموت فى كل ساعة . ويلتمس الدواء فى بطون الكتب القديمة كتذكرة داود الأنطاكى ، وكتاب الرحمة فى الطب والحكمة ، ولكنه لا يصبر على دواء ولا يقيم على حمية . وينعقد لسانه عن إرسال الشعر فترات تطول وتقصر ، لا لأن الوظيفة الحكومية ألهته أو دافعته عن إرسال الشعر ، ولكن لأن المرض ألح عليه وعكر صفاء ذهنه وعقل لسانه . والقول بغير ذلك يخالف الواقع .

٣

ما هذه الأحداث والأوضاع السياسية التى كانت قائمة فى مصر خاصة وفى الشرق ، والتى كانت تحيط بحافظ ويقع عليها سمعه وبصره وتنطبع آثارها فى نفسه ، ويتحرك بها خاطره وينطلق بها لسانه شعراً مصرياً ، صادقاً قوياً أو مدارياً ضعيفاً أو مجارياً تياراً أو محاذراً سلطاناً . لو تتبعنا تاريخ مصر والشرق منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى العقد الثالث من القرن العشرين ، وتعرضنا لما فى هذه الحقبة من أحداث سياسية وأوضاع اجتماعية ، لخرج بنا البحث عن الدائرة التى رسمناها لأنفسنا . ونحن نؤرخ تأريخاً أدبياً لشاعر ، ولكن بحسبنا أن نلم بأطراف من ذلك تتصل بحياة الشاعر ولها فى حياته أثر وفى شعره ذكر .

كانت مصر فى شطر كبير من حياة حافظ ، ولاية عثمانية تخضع لسلطان الخليفة العثمانى

السياسى والروحى. وتتبع الدولة العثمانية تبعية لها صورة حائلة ضعيفة، من هذه الصور التى تبتدعها السياسة فترسم خطوطها غير واضحة. وهى خاضعة للاحتلال الانجليزى الذى فرض عليها وظل جاثما عليها فى صور مختلفة، لاتزال منها آثار باقية إلى اليوم تحتضر وتلفظ الأنفاس الأخيرة بين يدى هذه الثورة، التى لم يتح لحافظ أن يشهدها.

واستمرت صلة مصر بالدولة العثمانية، إلى أن قطعها الإنجليز قطعا حين شبت الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ وأقصى عن عرش مصر الخديوى عباس الثانى. وانفردت انجلترا بالسيطرة على البلاد سيطرة سندها القوة الغاشمة، وعدوان القوى على الضعيف.

إلى أن كانت سنة ١٩٢٢ إذ صدر تصريح ٢٨ فبراير، الذى يعترف باستقلال مصر وسيادتها، على يد المرحوم عبد الخالق ثروت باشا رئيس الوزراء. ولكنه ميثاق لم تفلت به مصر من قبضة السلطان الإنجليزى.

فمصر إذن مرتبطة بدولتين إحداهما الدولة العثمانية والأخرى الدولة الإنجليزية. وهى بحكم هذه الرابطة تتأثر بما يقع فى الدولتين من أحداث، وما تحدثه الدولتان فى مصر من آثار.

ولهذه الأحداث وهذه الآثار صداها فى نفس حافظ، يتأثر بها ويتحدث عنها ويطلق شعره فيها.

وتئن الدولة العثمانية وشبابها من حكم السلطان عبد الحميد واستبداده، وأفاعيل جواسيسه. وتتكون هناك أحزاب تناوئه وتنابذه وتطالب باستمتاع الشعب بالدستور وخلع هذا الطاغية فيتم لها ذلك فى أوائل سنة ١٩٠٩، ويخلع السلطان عبد الحميد وينصب على عرش تركيا السلطان محمد رشاد الخامس خليفة المسلمين وتظل هذه الخلافة قائمة فى ملوك آل عثمان، إلى أن تخلع عنهم على يد مصطفى كمال فى أعقاب الحرب العالمية الأولى.

وفى ظل الخلافة الإسلامية لملوك آل عثمان ، تقع الحرب بين تركيا ، التى كانت تبسط سلطانها على الجزيرة العربية وعلى مصر وعلى جزء من شمال أفريقيا (طرابلس) ، وبين إيطاليا التى تهاجم طرابلس الغرب وتحتل شواطئها وتنتقم من الأتراك ، بإطلاق النار على ميناء بيروت وتنتهى هذه الحرب باحتلال إيطاليا لولاية طرابلس ، احتلالاً لم يتجاوز الأرباض التى تتاخم البحر .

وبحكم هذه الصلة السياسية والروحية القائمة بين مصر وتركيا ، يأسى المصريون لكل فاجعة تحل بتركيا ، ويفرحون لكل نصر تحرزه ، وتتجاوب أصداء الحوادث التركية فى الأجواء المصرية .

وتتكون فى مصر أحزاب سياسية تبعاً لهذه التيارات ، التى تتقاذفها وتعمل فيها فالحزب الوطنى الذى يتزعمه مصطفى كامل ومحمد فريد ، يطالب لمصر استقلالها التام ولا يجاهر بالعداء للدولة العثمانية . ولكنه يناوىء الإنجليز ويناوىء من يمالىء الإنجليز أيا كان . والخديوى الجالس على عرش مصر ، والذى بينه وبين العميد البريطانى فى مصر جفوة وعداء ، يضطر أحياناً لمداراة العميد البريطانى ، فيقف منه الحزب الوطنى موقف المعارضة . ويجنح أحياناً لمجاراة الشعور المصرى الوطنى فيهادنه الحزب الوطنى ويتقرب إليه . ولابد للخديوى فى هذه المواقف من حزب يؤيده ، وهنا يظهر حزب الإصلاح ، ويتزعمه الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد . والإنجليز لا يستطيعون أن يقفوا من الحزبين موقف الطمأنينة ، فلا بد لهم من حزب يجارى سياستهم ويؤيد قوتهم . فينشأ حزب الأمة هزيلا ضعيفاً ولا تلبث هذه الأحزاب أن يغيبها الزمان ولا يستطيع البقاء منها غير الحزب الوطنى . وهو يبقى لتجرى عليه سنة السكون ، من ضعف يعوقه أحياناً وقوة تحركه أحياناً ، وأحداث تناصره يوماً وتخذله يوماً . وتقوم الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ، فيقطع الإنجليز كما قلنا صلة مصر الباقية بالدولة العثمانية قطعاً حاسما ، ويزيحون عن عرش مصر خديويها عباس الثانى ، وينصبون مكانه الأمير حسين كامل سلطاناً على مصر ،

فى ديسمبر سنة ١٩١٤ . إلى أن ينتقل إلى رحمة الله فى أكتوبر سنة ١٩١٧ . ويخلفه فؤاد الأول .

ولا تنتهى الحرب فى أعقاب عام ١٩١٨ ، حتى تقوم ثورة ١٩١٩ تنادى باستقلال مصر وتجابه الإنجليز بعداء شديد ويصلب عود الإنجليز فى قمع الثورة بما لهم من وسائل ، بعضها العنف الشديد وبعضها الملاينة والمهادنة . ومن وراء ذلك كله محاولة تفريق الكلمة ، وبث العداوة والبغضاء بين طبقات الأمة ، والمماطلة فى الوعود وقد كانت تلك أداة صالحة فى يد الإنجليز فى حياتهم السياسية، يصطنعونها منذ أمد بعيد.

وتنشأ الأحزاب السياسية فى مصر أثراً من آثار هذه السياسة . فسعد زغلول يتزعم حزب الوفد . وعدلى يكن يتزعم حزب الأحرار الدستوريين . ثم ينشأ حزب الاتحاد ليناصر القصر ويحميه من قوى هذه الأحزاب . ويشهد حافظ فى حياته هذه الأصوات جميعاً فيتأثر بها ويرسل شعره فى الكثير منها .

وفى غمار هذه الأحداث السياسية المصرية ، تقع بتركيا وبمصر والسودان أحداث اجتماعية يبرز فيها رجال لهم فى السياسة والاجتماع شأن مذكور . يتيقظ لها حافظ بوعيه المصرى، ويرتبط ببعض هؤلاء، فيغرق فى الصداقة أو يغرق فى العداء ، ولا يعتقل لسانه عن إطلاق الشعر فى هذه الظروف ، فهو شاعر يحس بما يحس به المواطن الذى أرهف حسه للأحداث .

وحياة حافظ التى جرت تحت هذه الظلال السياسية العنيفة ، لم تنعم بحرية الرأى يوما ما . فبطش الإنجليز لا يفتأ قائماً ، وجواسيس الأحزاب تظل عامله ، والتهالك على السلطان والنفوذ بين الأحزاب يبلغ أشده فلا يرقى حزب إلى مقاعد الحكم ، حتى يبطش بأنصار من تخلى عنه ، بطشاً لا يتورع عن أخذ الناس بما يقولون وما يكتبون وما ينشرون أخذاً شديدا مرهقا . والصحافة فى أغلب هذا الزمان لم تعد لها جلالة ، ولم تنعم بحرية . وأرزاق الناس مرتبطة بسلطان الحكام والوزراء وأصحاب القوة من أولئك الذين ذكرنا .

فلا عجب إذا كان حافظ ذلك الشاعر الفقير ، يهتز قلمه بمدحه لمن لا يحب ، أو لمن لا ينبغى أن يمدح . ولا عجب إذا سكت لسانه حيث كان ينبغى الكلام ، أو نطق حيث كان ينبغى السكوت .

هذا هو الجو الذى عاش فيه حافظ وارتبط فيه بالبارزين الأعلام ، فى مصر وفى غير مصر من رجالات ، كان لهم أثر فى الحياة السياسية والاجتماعية . وأتيح له أن يجالس أولئك فى مجالسهم الخاصة ، وأن يرتبط معهم برباط ، وأن يكون لهذا الرباط أثر فى نفسه ثم فى شعره .

٤

هذا هو الجو الذى عاش فيه حافظ ، وهذه هى البيئة التى انغمس فيها . وكان لهذا الجو ولهذه البيئة أثر فى نفسه وفى تفكيره وفى شعره .

ومعرفة البيئة ضرورية فى نقد كل شعر فى كل أمة فى كل جيل . . ولكنها ألزم فى مصر على التخصيص ، والزم من ذلك فى جيلها الماضى على الأخص . ذلك ما يقول به الأستاذ العقاد ، وهو حق واضح ، وسنجد لهذه البيئة أثرها فى حافظ حين نعرض لشعره ومكانته .

وسنجده شاعراً مصرياً كما وجدنا حياته حياة مصرية ، وكما وجدنا نفسه نفساً مصرية . ولا تكمل دراسة البيئة التى لها هذا الأثر فى ميزان شعره ، دون النظر فى حظ الشاعر من العلم أو حظه من الثقافة كما نقول فى هذه الأيام .

نحن نعلم أن حافظاً حصل من علم المدارس ما يحصله طالب فرغ من مرحلة الدراسة الابتدائية ، وأخذ بيسير من دراسة المدارس الثانوية ، وانتقل إلى دراسة الجندية . وليس فى هذه الأقدار ما يصلح لأن يعتد به فى موازين المعرفة وتقدير الثقافة ، وليس فيها ما يعين الاستعداد الفطرى للشاعرية . ولكنه قرأ كثيرا فى

كتب اللغة والنحو والصرف والأدب ، وتزود من ذلك بزاد صالح وأخذ منه بحظ وافر . أى أنه وسع معارفه بكثرة الاطلاع ومداومة القراءة واطالة النظر فى كتب الأقدمين .

عكف حافظ على قراءة كتاب الأغانى ، وذكر لنا أنه قرأ الكتاب من أوله إلى آخره ، لم تفته منه كلمة ، عدة مرات . وقرأ دواوين الشعراء وعنى بنقدهم بما تيسر له من مقاييس النقد ، وأهمها ذوقه الخاص . وكان أقربهم إليه شعراء الدولة العباسية كأبى نواس وأبى تمام والبحترى والمتنبى وأبى العلاء المعرى . وكانت له ذاكرة عجيبة يحفظ من قصائد هؤلاء الشعراء قدرا كبيرا ، وتسعفه الذاكرة فى الاستشهاد بشعرهم حين يعرض له لفظ أو معنى دون كد ولا عناء .

وعكف حافظ على قراءة القرآن ، فروى لنا أنه قرأه عشرات المرات ، وحفظ منه مئات الآيات التى كان يجد فى لفظها وتركيبها ما يبهره ويحلو لذوقه

وانتظم كما قلنا فى دروس الأزهريين بالجامع الأحمدى بطنطا ، كما استمع لدروس الأستاذ الأمام محمد عبده فى تفسير القرآن وعلم التوحيد . فيكون بذلك قد حصل شيئاً نستطيع أن نسميه الثقافة الأزهرية أو الدينية

وتزود من أحاديث المجالس التى كان يغشاها بذخيرة من الآراء العلمية والاجتماعية والمعلومات العامة ، التى كان يهضمها بذكائه الفطرى ويقلب النظر فيها على أضواء ترسلها عليها الصحف والمجلات المتداولة . ثم يكون له فيها رأى يختاره لنفسه فيحدثك به ، وكأنه عالم فاحص متمرس . وكان له من صحبه من يزوده بنتاج الفكر الغربى فيطلعه على ما يترجم من الإنجليزية أو الفرنسية . وينظرهو فيها نظرة لم تبلغ به حد التأثر بأساليب الفكر الغربى ، ولا العلم بمناهج التفكير فيه .

وحظ حافظ من العلم باللغة الفرنسية قليل ، فما كان يستطيع الكلام بها بطلاقه وما كان يحسن فهم أساليبها إلا مستعيناً بغيره ، لذلك كانت ثقافته عربية خالصة ولكنها ليست مقصورة على القديم .

٥

أما أخلاقه التي صاغتها هذه الحياه التي وصفنا ، فأظهر ما فيها ملاله وعدم استقراره على شيء رتيب . فهو لا يطيل البقاء على شيء ، سريع الضجر إذا رانت عليه حالة ، ولـكنه ضجر مكبوت لا يلبث أن يكون استهانة واستخفافاً بما أضجره . وهو قليل الثقة بأعمال الناس ، فقل أن يحدثه محدث بما فعل أو ما سيفعل حتى يسخر منه ولذلك لم يكن يغالى فى الاعتداد بأقدار العظماء الذين عاشوا فى عصره ، ولم يكن يأبه لما يحيط اسماءهم من إجلال و إكبار . وأفضت به هذه الخلة إلى أخرى ، فهو لا يهاب كبيرا ولا يتهيب موقفا ولعل هذه هى التى طوعت له التمـكن من حسن الإلقاء . ولقد روى لنا أن السلطان حسين كامل لما انتابته العلة ، نصح له الأطباء أن يسرى عن نفسه و يروح عن أعصابه بوسائل المرح والسرور والضحك ولـكن العُصاب الذى كان قد تمـكن من السلطان ، لم يسمح لأحد بأن يجالسه و يضحكه أو يطمئن لمجلسه . غير أن حافظاً وقد دعى للقاء السلطان لم يهب الموقف ، وتبسط فى الحديث معه حتى لقد علت قهقهته وعلت قهقهة السلطان ، فسمعها كبير الأمناء الذى قال سمعت حافظاً يخاطب السلطان بقوله أبوك وجدك بـكاف المخاطب المفرد ، وهو ما لم يكن أحد يجرأ أن يفعله .

وكان من آثار ضجره وملله ، أن تعثر فى كثير من عقائده السياسية والاجتماعية وتردد فيها بين أطرافها ، أو يئس من غاياتها ومن القائمين بها . وكان من آرائه فى سياسة مصر أنها عبث أطفال يديره رجال ولقد أثر عنه رحمه الله حين أشتدت الخصومة بين سعد زغلول وعدلى يكن ، ذلك يتزعم الوفديين وهذا يتزعم الأحرار الدستوريين ، أن قال « مسكينة هذه الأمة وقعت بين أثنين : واحد لا يسكت أبداً وواحد لا يتكلم أبداً » . وكان سعد كثير الخطابة فى الجمهور ، وقل أن سمع عدلي خطيباً .

ثم هو رجل سمح جواد متلاف ، لا يبقى على شيء فى يده ، ولا يدخر من قوت يومه لغده . طال عهده بالحرمان ، فلما تيسر له الرزق أوغل فى الإسراف . لا يكاد يستهل شهر رمضان حتى يمد المائدة فى ردهة داره لطعام الإفطار ، يفعل ذلك ثلاثين ليلة . وكان يصف حول المائدة أربعة عشر مقعداً ، وحق الجلوس إلى المائدة للأسبق فى القدوم عليه ، دون دعوة أحد ، فإذا تموا أربعة عشر ضيفا ، رفض إطعام من يزيد ، كائنا من كان . فإن كان صديقا له أرسله بأمر منه إلى بيت أحد أصدقائه . وكان يدخن السيجار الفاخر ، ويحب أن يشاركه الناس فى تدخينه . ويرى فى التدخين وسيلة للتفكير ، ويبالغ فى ذلك حتى يتساءل ماذا تفعلون إذا اردتم أن تفكروا ولم تكن بأيديكم سيجارة ضخمة ترسل دخانها لتوقظ الفكر واقطع عن تدخين الشيشة فى أخريات حياته بناء على نصح من الأطباء .

ومن رأى حافظاً ، ذلك الرجل الطويل الفارع الأسمر الوجه ، العريض المنكبين ، الذى بدأ حياته جندياً وانفق شطراً منها فى السودان ، حسب أن بين جنبيه نفساً قوية ممتلئة بالشجاعة لا تخشى الأهوال ولا تفزع للخطوب . ولكن حافظاً لم يكن من ذلك فى كثير . نعم هو لا يهاب الرجال ، ولكن يهاب الأهوال ويرجو السلامة ويؤثر العافية . وكان المرض والموت يفزعانه ويقضان مضاجعه . ويجرى هذا الخوف على لسانه وفى مجالسه وفى شعره ، وكان الخوف من الفقر بعد أن يسرت حاله والحرص على وظيفة الدولة بعد أن تمت له ، مما يكبت فى نفسه ولايفصح عنه لسانه. وكان أحرص الناس على منزلته فى الشعر ، فهو يضطرب ويثور إذا تعرض له أحد ينقد شعره علانية أو فى مجتمع . وهو يكره أن يذكر له شاعر معاصر ذكر سبق وتفضيل . وكان يكره أن يستشف من آراء بعض الناس تفضيلا لشوقى عليه أو تفضيلا لأى شاعر معاصر عليه . وكانت فى نفسه موجدة عارمة على الشاعر عبدالحليم المصرى الذى نظم قصيدة فى تاريخ أبى بكر الصديق بدأها بقوله :

أفضني أبا بكرٍ عليهم قوافيا   وامطِر لساني حكمة ومعانيا

مقتفيا أثر حافظ الذى نظم قصيدة فى سيرة عمر بن الخطاب بدأها بقوله :

حسب القوافى وحسبى حين ألقيها أنى إلى ساحة الفاروق ازجيها
لاهم هب لى بيـاناً استعين به على قضاء حقوق نام قاضيها
قد نازعتنى نفسى أن أوفيها وليس فى طوق مثلى أن يوفيها
فمر سرىّ المعانى أن يوافينى فيها فانى ضعيف الحال واهيها

وكان حافظ يريد أن يمضى فى نظم قصائد فى سير الخلفاء ، فلما سارع عبد الحليم إلى سيرة أبى بكر ، كف حافظ عما أراد وأطلق لسانه فى عبد الحليم . وأخذ يتساءل فى مجالسه أى فرق بين مطلع قصيدة عبد الحليم ومطلع قصيدته . هذا عبد الحليم قد سرق المعنى ولم يحسن صياغة اللفظ ، وقعدت به شاعريته الضعيفة عن الانطلاق فى استلهام القوافى من الله ، فى لفظ فخم ضخم كالذى توفر لى . هكذا كان يقول.

والعجب العاجب فى أمر حافظ ، أنه مع هذه الخلال التى وصفنا ، ومن خلال هذا الظلام الذى يخيم على نفسه — ظلام البؤس والحرمان واليأس من خير الدنيا ومن خير الناس والخوف من الموت ومن المرض — كان اقدر أهل عصره على أن يملأ المجالس بشراً وسروراً ، حلو النادرة سريع الخاطر فى ملاقاة النكتة ، بديع التفكير فى تشقيق المعنى وتصريفه ، ليلوى به عن قصده إلى الفكاهة . بديع الخيال فى تصوير الفكرة صورة تدعو للضحك والسخرية ، معتمدة على المبالغة الشديدة أو المخالفة الصارخة أو الانتقال المفاجىء ، وهو فى ذلك كله يجرى على ما جرى عليه طبع المصريين من الولع بالنكتة والابداع فى تصويرها تصويراً مصرياً خالصاً .

صديقه المرحوم إمام العبد ، رجل طويل اسود يقول الشعر ويتذوق الأدب ويحسن النكته سكن فى دار ضيقه، زاره فيها حافظ وعاد حافظ إلى أصدقائه يقول: « إمام العبد سكن فى بيت ضيق جداً حتى يمر عليه الخفير ليلا فيقول له : يا إمام يا إمام دخل رجليك جوه » هذه صورة مصرية بحتة ورائعة فى قوة الدلالة .

وكان فى مجالسه الخاصة وفى أخريات أيامه ، يخالط المرحوم خليل خير الدين وهو رجل له فى النكتة باع طويل، يجريها على النحو المألوف فى بعض مجالس العامة

والمعروف باسم القافية . والقافية تدور حول موضوع واحد يتبارى فيه القرنان فى تشقيق الألفاظ واستقصاء المعانى التى تتصل بالموضوع المتفق عليه ، تشقيقاً يعدل بها إلى الفكاهة و إثارة الضحك . وكان حافظ يدعو صديقه خليل خير الدين، و يقول له « خش لى قافية » . ويختار أحدهما موضوعا كالقطار أو الساعة أو الترام ولا يزال كل واحد منهما يبتكر من النكت فى الموضوع . ما يقطع نياط القلب ضحكا ، وطالما فتر نشاط خليل وانقطع نفسه ، وحافظ لا يزال يمطره نكتة بعد أخرى .

ونحن إذا علمنا أن النفس الممرورة المضطربة ، تلتمس فى التندر والضحك متنفسا لكربها ، و إذا علمنا أن حافظا قد عاش فى البيئة المصرية البلدية ، وخالط الدهماء وعاشر الأوزاع ، وجدنا لهذه الخاصة فى حافظ سبباً مقبولا و باعثا قويا . ولكن إذا خلا حافظ عن الشعر فما كان يبيح لنفسه أن يخرج عن جادة الوقار . وما كان يحب أن ينقل عنه شعر فكه مازح ، وهو الحريص على أن لا يتعرض لواحد من سهام النقد ، التى كان يتربص له بها خصومه . والشعر الهازل لا يبلغ عادة من الجزالة وحسن الرصف ما يبلغ الشعر الجاد .

وحافظ الذى قلنا عنه إنه يائس من خير الناس ، والذى قلنا عنه ما يشبهه بالحاقد على المجتمع ، والذى قلنا عنه إنه يستهين بأقدار الناس ومنازلهم ، هو الرجل الذى بلغ من الوفاء لأصدقائه ، والحب لأولئك الأصدقاء والحرص على مودتهم ، مبلغاً لا يجاريه فيه إلا القليلون من الأخيار . كان إذا أحب رجلا بذل له نفسه وروحه ، وحرص على ملازمته ، ودافع عنه أشد الدفاع . وتصور له من صور الكمال ما لا يخطر ببال . فإذا فجع حافظ فى صديقه هذا حزن أشد الحزن وأصدقه ، ورثاه من قلبه رثاء حاراً . و إذا فجع حافظ فى وفاء الأصدقاء ، فتنكر له صديق أو صد عنه حميم ، أو وقعت بينه و بين صديقه جفوة ، ثار وغضب أشد الغضب ، وانطلق لسانه فى المجالس والمجتمعات ينال من صديقه ما لا تنال السهام من مراميها وتفسير ذلك هين غير عسير ، فهو رجل مرهف الحس قوى العاطفة ، يتأثر لأوهى المؤثرات ، و ينفعل لأهون الأحداث ، وسيظل الناس حين يذكرون حافظاً يذكرون أبرز خلاله : الوفاء للأصدقاء .

شـــعر حافظ

١

المديح

تعرض الشعراء فى عصور مختلفة — وسيظلون — لمحنة النقد والمفاضلة . وأنكى ما يصابون به اختلاف الآراء فى أساليب النقد ومقاييس المفاضلة . وتطوح المرامى فى تقـدير الشعر ومذاهبه ، ورجف المذاهب فى العصر الواحد فى تذوق الشعر والحـكم عليه .

ونحن فى هذا العصر الذى نكاد نخضع فيه الفن والجمال لمقاييس العلم وحدوده ، لا نزال ننزع منازع الأقدمين ، فنحكم على الشاعر بالسبق أو التخلف وفقا لأهواء وآراء ومذاهب شتى ، غير واضحة المعالم ولا بينة الحدود .

ولا يزال فى الأدباء والشعراء من لا يحكم بالفحولة للشاعر ، إلاّ إذا بكى على الطلل وشبب بسلمى ، وودع هريرة . ولا يزال فيهم من لا يقر بالشاعرية لشاعر ، إلاّ إذا ركب الزورق ونادى الملاح ووقف على شاطىء البحيرة . وفيهم من يستمع إلى قصيدة صورت مشاعر الأمة وسايرت إحساسها ، وساوقت تفـكيرها وانتظمت من الأخيلة أقربها إلى النفس ، واتسقت فيهـا من التشبيهات أدناها إلى التصور والفهم الشائع ، فلا يلبث أن يتهم الشـاعر بأنه مسف نزل إلى مراتب العامة ومدارج الدهماء .

وفيهم من لا يعترف للشاعر العربى بالشاعرية ، إلاّ إذا حاكى أحد شـعراء الغرب ، واستقى من معينه وترسم خطاه ولو أبهم وأعجم واستغلق . كأن الأدب العربى بيننا قد عدم كريم النسب وأثيل المجد ، فـكان وَحَدا هجينا وكان علينا أن نلحقه دَعيّا وَغلا بأصل غربى .

بهذه الأحكام الغاشمة والأهواء المضطربة يشقى شعراؤنا و يمتحنون .

والشعر كما قلنا فى مقدمة هذا البحث ، فن جميل له من الرقة والسمو وأثالة المجد ما يرفعه عن هذه الحدود والأغلال الظالمة . فالفن تعبير لا تقدير ، والجمال يعرف بالإحساس لا بالمقياس ، والرقة تنفر من عسر الدقة ، والسمو انطلاق وتحليق لا قيد وتضييق . والمجد فى الاعتداد بالجمال الخالد الذى يمثل فى القديم وفى الجديد .

نريد أن نعرف أين نضع حافظاً بين شعراء العربية ، وأين هو من شعراء عصره . ولعل أيسر السبل لهذه المعرفة أو أسلمها عاقبة أن نستعرض طبقات الشعراء ونعرض عليها حافظاً ، لنرى هل له فيها مكان ، أو أنه بعيد الصلة بها بعداً ظاهراً أو قريب الشبه بها قرباً يعتد به .

وغنى عن البيان أننا إذا حكمنا بقربه أو بعده عن طبقة بعينها ، فليس معنى هذا إن كل قصائده تشهد بهذا القرب أو بهذا البعد . فالشاعر فى نتاجه الفكرى يقطع مراحل من الزمن ومن تطور الفكر ، خاضعاً لسنة التطور . وهو فى تفكيره كالطائر فى الجو يعلو و يهبط و يحلق و يسف . وقد يدنو فى صباه من طبقة ينأى عنها حين تتقدم به السن . وقد يدنو من طبقة فى باب من أبواب الشعر ، و يبعد عنها فى باب آخر . وقد ينهج فى قصيدة منهج طبقة من الشعراء سيطرت على ذهنه إذ ذاك ، وهو أبعد ما يكون فى قصائد أخرى عن هذه الطبقة بعينها . فأحكامنا إذا ينبغى أن تكون عامة تأخذ بالكثرة ولا تنقضها القلة .

لم يكن حافظ شاعرا من أولئك الذين حبسوا أنفسهم على دراسة أوزان الشعر أو علم العروض ، ليكون شاعرا فى يوم من الأيام . فهو ليس من طبقة الشعراء المقلدين الجامدين ، وإنما هو شاعر بإحساسه و بطبعه وبانطلاق فكره من هذه القيود ، التى كانت تقيد من سبقه من الشعراء ، فى عهود ضعف فيها الروح القومى واختفى فيها الذوق الحى وقلت فيها وسائل المعرفة والاطلاع . فإذا أقصيناه عن هذه الطبقة ، فإنما ندنيه من طبقة ، تسميها المجددين ، كان يتزعمها محمود سامى البارودى . وتمتاز هذه

الطبقة بالجزالة وجلال العبارة والتحرر من القيود ويمتاز حافظ عن البارودى وعن اسماعيل صبرى وعن احمد شوقى بأنه وفق إلى صدق التصوير للحياة الشعبية ، وعاش فى غمار العامة ، فارتسمت صورها فى نفسه ورسم هذه الصور فى شعره أصدق ما يكون الرسم والتصوير ، وهو بذلك من الشعراء المحدثين . وحافظ شاعر قومى يعبر عن تفكير الأمة فيما يهمها من أحداث حياتها ، وفى الوقت نفسه هو شاعر ذاتى يشكو ويرثى ويهنىء ويمدح ويعبر عن خلجات نفسه . ولم يكن فى الجيل الذى عاش فيه ، من استطاع أن يجمع فى شعره بين القومية والذاتية .

والمتتبع لشعره ، يرى أنه جرى على ما ألف القدامى من إرسال الشعر فى المديح . وليس المديح من خصائص القدامى التى يتميزون بها ولكن مديح حافظ كان من ذلك الطراز الذى يضطر فيه الشاعر أحيانا ، وفى القصيدة الواحدة ، إلى الخروج عن طبعه وسجيته إرضاء للممدوح ، أو استدرارا لعطفه . ولكنه لا يثبت على هذا فلا يلبث أن يحول مديحه إلى مديح متسم بالروح القومى ، ينزع فيه الشاعر إلى امتداح خلال اجتماعية أو ميزات قومية ، أو أعمال وطنية أو آمال شعبية تتعلق بالممدوح أو تبرز فيه أو تدعو لها مناسبة . ولذلك يخرج حافظ عن زمرة المادحين القدامى الذين كان أكثر همهم مدح الرجل للشجاعة فى القتال وكرم الضيافة وسعة الجود .

بين يدينا قصيدة له يهنىء بها الخديوى بالعام الهجرى نشرت عام ١٩٠٤، مطلعها .

قصرت عليك العمر وهو قصير   وغالبت فيك الشوق وهو قدير

ويذهب فيها حافظ مذهب القدامى ، فيصور حبه للممدوح وولاءه له ، ويتعرض للحاسدين الذين يغضون من شأنه فى ساحة ممدوحه . ويعبر عن آماله فيه كما كان يفعل المتنبى مع سيف الدولة . ولكن حافظاً لا يلبث أن تغلب عليه الروح القومية فينتقل إلى آمال مصر والشرق فيقول :

جرت أمة اليابان شوطاً إلى العلا   ومصر على آثارها ستسير

ولا يمنع المصرى إدراك شأوها وأنت لطلاب العلاء نصير
فقف موقف الفاروق وانظر لأمة إليك بحبات القلوب تشير
ولا تستشر غير العزيمة فى العلا فليس سواها ناصح ومشير

وهذه قصيدته فى تهنئة السلطان عبد الحميد بعيد جلوسه نشرت فى عام ١٩٠٨

أثنى الحجيج عليك والحرمان وأجل عيد جلوسك الثقلان

تذكرنا بما كان يقوله المتنبى لسيف الدولة إذا عاد من غزوة ، أو خرج من نصر أو فاته ظفر أو نكل بقوم . أقرأ قصيدة المتنبى التى مطلعها .

بغيرك راعيا عبث الذئاب وغيرك صارما ثلم الضراب

وقف عند قوله :

يهز الجيش حولك جانبيه كما نفضت جناحيها العقاب
وتسأل عنهم الفلوات حتى أجابك بعضها وهم الجواب

وعند قوله :

إذا ما سرت فى آثار قوم تخاذلت الجماجم والرقاب

واقرأ قصيدة المتنبى التى يقول فيها :

شذنت بها الغارات حتى تركتها وجفن الذى خلف الفرنجة ساهد
مخضبة والقوم صرعى كأنها وإن لم يكونوا ساجدين مساجد
تنكسهم والسابقات جبالهم وتطعن فيهم والرماح المكايد
وتضربهم هبراً وقد سكنوا الكدى كما سكنت بطن التراب الأساود

وأقرأ غير هذا من شعر المتنبى ومن شعر البحترى ثم عد إلى قصيدة حافظ هذه التى يهنىء بها عبد الحميد ويقول له :

لو أنهم وزنوا الجيوش بمشهد رجحت بجيشك كفة الميزان
لو شاء زلزلها على أعدائه أو شاء أذهلها عن الدوران
يمشون فى حلق الحديد إلى العدا وكأنهم سد من الإنسان

وكأن مقدمهم إذا لمع الضحى سيل من الهنـــدى والمرّان
يتواقعون على الردى وصفوفهم رغم الوثوب كثابت البنيـان

ثم ارجع إلى المتنبي لتقرأ له :

وعلى الدروب وفى الرجوع غضاضة والســـير ممتنع على الإمكان
والطرق ضيقة المسالك بالقنا والـكفر مجتمع على الإيمـــان
نظروا إلى زبر الحديد كأنما يصعـدن بين مناكب العقبان
وفوارس يحيي الحمـــام نفوسها فـكأنها ليست من الحيـــوان

وعد إلى قول حافظ من تلك القصيدة :

فإذا المدافع فى النزال تجاوبت بزئيرها وتـــلاحم الجيشان
وإذا القنابل دمدمت وتفجرت تحت الغبـــار تفجر البركان
وإذا البنادق أرسلت نيرانهـا طُلقًا وأسباب الهـلاك دوانى
أبصرت جنا فى مسالخ فتية وشهدت أفئدة من الصوان

إنك لواجد نفس المتنبيء وروحه متمثلين مسيطرين على حافظ .

ومع ذلك لا نعد حافظاً من القدامى بل هو من المحدثين . فلا يلبث بعد هذه المحاكاة للمتنبي أن يثوب إلى نفسه ، ويرجع إلى طبعه فتغلب عليه النزعة القومية أو الوطنية ، فيهنيء الأمة بوعد بالدستور ويوصيهم بأن يكونوا يوم الفخار كأمة اليابان وأن يتفيئوا ظلال الهلال وأن يدعوا التقاطع فى المذاهب ويتسابقوا إلى الباقيات. ويرتد من الأمة التركية إلى مصر فيرجو من شهر تموز (يولية) الذى فازت فيه تركيا بوعد بالدستور أن يمن على مصر بمثل ما من به على تركيا .

تموز أنت أبو الشهور جلالة تموز أنت منى الأسير العانى
هلا جعلت لنا نصيبا علّنا نجرى مع الأحياء فى ميـدان
أيعود منك الآملون بما رجوا ونعـود نحن بذلك الحرمان

وخلاصة ما نرمى إليه من هذه المقارنة أننا لا نعد حافظاً من القدامى ولا من المغرقين فى تقليد القدامى وأن مديحه متسم بالروح القومى معبر عن الأمانى الشعبية .

٢

شـــعر الاجتماع

أما شعر حافظ فى الاجتماع فهو صورة من طبعه ومن نفسه ، يحس بآمال الأمة وآلامها . وتتصور له هـذه وتلك بصورة مصرية صميمة فى مصريتها . ويعبر عنها بلسانه المصرى دون أن يجد فى ذلك عناء ولا عسرا . لأنه لا يتناول الصورة من بعيد ، بل يتناولها من قلبه ومن إحساسه . وهو فى شعره هذا جزل اللفظ رصين الأسلوب ، يتخير الألفاظ ويصطنع التعبير الذى يملأ النفس حماساً ويثير الخواطر ويلهب الشعور .

وما كان حدث من الأحداث يقع فى مصر أو فى الشرق ، ويتردد صداه فى المجالس والمحافل ، حتى يتناوله حافظ ويطلع به على الناس فى شعر ، لم يبلغ من عمق التفـكير ودقة التحليل ما ينبغى أن يبلغه رجل اجتماعى أو مفـكر متعمق أو دارس حصيف . لا تجد هذا العمق فى شعر حافظ ، وما كان لنا أن نطالب الشاعر الاجتماعى بهذا العمق والتدقيق والتحليل . والشاعر أصالة معبر عن العاطفة والعاطفة لا تحتمل عنت العلم ودقة التحليل .

قامت فى مصر ضجة حول زواج الشيخ على يوسف صاحب المؤيد ، بابنة السيد أحمد عبد الخالق شيخ السادة الوفائية . وكان الأب متردداً فى الموافقة على زواج ابنته بالشيخ ، وعقد الشيخ خطبته رغم ذلك ، وعارض الأب وطلب فسخ العقد . ولعبت الأهواء السياسية فى هذا الزواج لعباً امتدت آثاره إلى ساحات القضاء الشرعى . وشُغل الرأى العام بهذا الحادث ، لما كان للشيخ على يوسف من مكانة فى البلاد ومن منزلة فى توجيه السياسة . وادعى قوم أن الشيخ على يوسف ليس كفئاً بنسبه وأصله للزواج من فتاة تمت إلى الأشراف أنسال الرسول بنسب . وأثبت الشيخ أنه هو

من نسل الرسول كذلك . فماذا كان موقف حافظ من الخصومة : يئس حافظ من أخلاق هذه الأمة المتلونة التى لا تثبت على مبدأ ، وحطم يراعه فى أول بيت من قصيدته يأساً من المصريين ومن أخلاقهم ونعى على المصريين ما انغمسوا فيه من ولع باللذات وما انصرف إليه شبابهم من لهو وسرف ، والأجنبى لهم بالمرصاد يكد و يسعى ، وأصحاب الرأى وقادة الإصلاح منقسمون شيعاً وأتباعاً والصحف من ورائهم تطن طنين الذباب :

حطمت اليراع فلا تعجبى — وعفت البيـان فلا تعتبى
فما أنت يامصر دار الأديب — ولا أنت بالبـلد الطيب
أنابتة العصر إن الغريب — مجـــد بمصر فلا تلعبى
أفى الأزبكية مثوى البنين — و بين المساجد مثوى الأب
(وكم ذا بمصر من المضحكات) — كما قال فيهــا أبو الطيب
وشعب يفر من الصالحات — فرار السليم من الأجرب
وصحف تطن طنين الذباب — وأخرى تشن على الأقرب
وهـذا يلوذ بقصر الأمير — و يدعو إلى ظله الأرحب
وهذا يلوذ بقصر السفير — و يطنب فى ورده الأعذب
وقالوا المؤيد فى غمـــرة — رماه بها الطمع الأشعبى
دعاه الغرام بسن الـكهو — ل فجن جنونا ببنت النبى
فضج له العرش والحاملوه — وضج لهـا القبر فى يثرب
وقالوا لصيق ببيت الرسول — أغار على النسب الأنجب
فما للتهـانى على داره — تسـاقط كالمطر الصيب
وما للخليفة أسـدى إليه — وساماً يليق بصـدر الأبى

لقد فات حافظاً فى هذه القصيدة ما يزدحم حول الموضوع من معانى جديرة بالتسجيل ، منها حر ية الفتاة فى الزواج بمن تحب ، وتدخل الآباء فى قسر فتياتهم على

زواج من أحبوا وأرادوا . ومنهـا تقدير الرجال بأعمالهم وأخلاقهم لا بأنسابهم وأحسابهم ومنها تنزه القضاء عن التأثر بالأهواء والخضوع لإرادة الحـكام ، ومنها غير ذلك من المعانى التى هى أهم مما ذهب إليه حافظ فى قصيدته . فات ذلك كله قريحة حافظ ووقف من هـذا الحادث موقف اليائس الذى نفض يديه من كل محاولة للاصلاح . وسجل على الأمة لهوها ولعبها و إسفافها فى الخلق . ولـكن لم يفت حافظاً أن صور فى هذه القصيدة صورة واضحة لمصر ، وسجل فيها ما كان يدور على ألسنة الناس من عيوب المصريين إذ ذاك . وختم القصيدة موليا ظهره لهذا الشرق مسلما عايه سلام المودع ، اليائس من اللقاء الفاقد للرجاء :

على الشرق منى سلام الودود　　　و إن طأطأ الشرق للمغرب
لقد كان خصبا بجدب الزمان　　　فأجدب فى الزمن المخصب

من هذه القصيدة ومن أمثالها حكموا على حافظ ، وما كانوا له ظالمين ،بانه لم يتعمق فى درس المشكلات الاجتماعية تعمق العارفين . ولم يكن إلا صدى لما نسميه الرأى العام الذى لم يبلغ ، وما كان له أن يبلغ من الرشد والدراية مبلغ العلماء الفاحصين . ولـكن الشاعر صادق فى الصورة التى رسمها لهذا الرأى العام . وشعره قريب إلى هذه القلوب التى يصدر عنها هذا الرأى .

وحاول حافظ فى إحدى قصائده الاجتماعية،أن يخرج عن هذه الحدود التى رسمها له طبعه ونفسه ، حاول أن لا يكون مصوراً للرأى العام وأن يجنح إلى الخيال القصصى لعله بذلك يكون مجدداً ، ولعله يكون شاعراً قصصياً ، ولعله يستحث الخواطر و يثير النفوس عن طريق التصوير لا عن طريق التعبير . فلم يوفق إلى ما أراد ولم يصل إلى غايته ، وأحسب أنه أحس بذلك فعدل عن هذه المحاولة .

وما كان حافظ شاعرا قصيصاً ولا كان غواص أخيلة وصور ، إنما كان شاعراً اجتماعياً عاطفياً يحسن تصوير ما فى نفسه وما فى نفوس الناس . وبضاعته فى ذلك هذه الإحساسات التى يغلى بها صدره ، وهذه الشاعرية التى اكتسبها بطبعه وهذه الجزالة اللفظية التى تيسرت له بمرانه ودرسه للغة .

شغل الناس فى عام ١٩١١ بتأسيس ملجأ لرعاية الأطفال ، وأقاموا حفلا للقائمين بأمره ، فأراد حافظ أن يكون شاعر الحفل . ودار حول معنى واحد لايريم عنه وهو حث النـاس على البر والإحسان فرسم صورة قطار من قطر السكة الحديدية يمضى مسرعا فى الليل ، فكأنه :

صفحة البرق أومضت فى الغمام   أم شهاب يشق جوف الظـلام

وأنفق فى وصف القطار عشرين بيتاً حتى استفرغ جهده . وكانت تتقطع به الأنفاس أحيانا حتى يفوته مالا ينبغى أن يفوت حافظاً من سلاسة اللفظ وحسن الجرس ويسر التعبير . بل كان يتعثر حتى يقع فى مثل ما تجد فى هذا البيت ، من نبو فى اللفظ .

بين جنبيك ما بجنبى لـكن   ما بجنبىّ مستديم الضرام

ولو أسقط هذا البيت الذى حوى ثلاث جنوب لسلمت له جوانب القصيدة ، وما أساء إلى سمعنا . وبينما القطار سائر مسرع ، إذا برجل يسير على الجسر فيهوى بين موتين محققين ، إن يسلم من القطار يقع فى النهر ولـكنه :

فتردى فى المـاء والماء غمر   يتقيه القضـاء والنهر طامى

وإذا سابح قد انقضّ فى المـا   ء انقضاض العقاب فوق الحمام

وأنقذ السابح الغريق وهنا :

وقف الناس ذاهلين وصاحوا   تلك إحدى عجائب الأيام

أنجاة من القطار من الجسر   من النهـر جل رب الأنام

وهنا تبدو فتاة تخطب فى النـاس فتقول لهم « تلك عقبى رعاية الأيتام » . . . وأن هذا الغريق قد أسدى إليها يداً لا تنساها :

إن هذا الـكريم قد صان عرضى   وحمانى من عاديات السقام

عال طفلى وعالنى وحبـانى   بكساء وبدرة وطعـــام

وأنه من رجال هذه الجمعية الذين :

وأقاموا للبر داراً فكانت خير ورد يؤمه كل ظامى

ومن هنا يرى حافظ مالا أراه فى القصة . ولا يبدو لى واضحاً فى معالمها وأحداثها إذ يقول :

وعلمنا أن الزكاة سبيل الله قبل الصلاة قبل الصيام

هذه هى الصورة الحائلة المهلهلة التى رسمها حافظ وهى ليست من الخيال البارع ولا القصص الرائع فى شىء .

ولكن إذا عاد حافظ إلى نفسه وإلى طبعه ، واتته ربة الشعر وأفاضت عليه . فلا يكاد يفرغ من هذه الصورة الضعيفة حتى يتحول إلى نفسه وإلى بؤسه وإلى ذاته فيجيد أيما أجادة ، فى أعقاب هذه القصيدة بعينها وكأنى به قد أحس بما فيها من ضعف فاعتذر عنه .

لم أقف موقفى لأنشد شعراً صب فى قالب بديع النظام
إنما قمت فيه والنفس نشوى من كؤوس الهموم والقلب دامى
ذقت طعم الأسى وكابدت عيشاً دون شربى قذاه شرب الحمام
فتقلبت فى الشقاء زمانا وتنقلت فى الخطوب الجسام
ومشى الهم ثاقباً فى فؤادى ومشى الحزن ناخراً فى عظامى

فى هذه الأبيات الأخيرة تجد حافظاً كما هو على حقيقته ، وأما فيما سبقها ، فإنك تجد حافظاً فى ثوب معار لا يناسبه ، ويا ليته أسقط آخر بيت فى القصيدة .

فلهذا وقفت أستعطف النا س على البائسين فى كل عام

فان الاختتام ببيت يبدأ (بلهذا) أشبه بما يحرره كتبة العرائض والموثقون فى ذيل رسائل الشكوى ووثائق الأحكام .

٣

الذاتيـــــة

لم يكن حافظ يتحدث كثيراً عن نفسه ، إلا حين يريد أن يصف بؤسه وضيق صدره ، وهنا يجيد كل الإجادة . أما ما يطرقه الشعراء من أبواب التحدث عن النفس والفخر والحماسة ، فقد كان حافظ يجارى الشعراء فيه أحيانا فيكون له شعر لا يصل إلى المرتبة العليا ، ولا يعدو فى عبارته ومعانيه ما ألف الناس فى مجالسهم من اصطناع التواضع أو الضعف والاستكانة . ذلك بأن حافظاً كما قلنا إذا أطلق نفسه على سجيتها انصرفت إلى الشعر الباكى الحزين ، فبلغت منه منزلة لم يدركها شاعر فى عصره . فأما إذا حمل نفسه حملا على التحدث عن نفسه فى غير هذه المواطن ، جاء شعره أقرب إلى لغة العامة أو مجاملات المجالس .

أقرأ له هذه القصيدة فستجده غير موفق فيها ، وستجد فيها صورة غير مألوفة له .

وهل أنا إلا امرؤ شـاعر	كثير الأمانى قليل النشب
يقـــــول ويطرب أترابه	ويقنع منهم بذاك الطرب
تعلقت حينا بذيل البيـان	وادخلت نفسى فى من كتب
فلا السبق لى فى مجـال النهى	ولا لى يوم الفخـار الغلب
ولا أنا من علية الـكاتبين	ولا أنا بالشـاعر المنتخب
ولـكن سما بى عطف الأمير	ورأى الوزير وفضل الأدب
وما كنت أحلم — لولا الوزيـ	ـر بهذا الهناء وهذا اللقب

أليس شبيهاً بلغة العامة قوله ما كنت أحلم بهذا الهناء وهذا اللقب — أما كان يجدر بحافظ أن يرتفع عن هذا فى قصيدة يلقيها فى حفل يقام لتكريمه بالكونتنتال ،

حين أنعم عليه الأمير برتبه البكوية ؟ وياليته وقف عند هذا بل استمر يقول مخاطباً الوزير أحمد حشمت باشا .

على أياد له جمـــة وفضل قديم شريف النسب
فآ نا أقال به عـــثرتى وأورى زنادى وآنـــاً وهب
تفيأت منه ظـــلال النعيم وأصبحت أعرف لبس القصب

هذا القصب الذى يشير إليه حافظ ، هو هذه الخيوط الذهبية التى يحلى بها كساء التشريفة ، يلبسه من يحوزون الرتبة حين يمثلون بين يدى الأمير . وذكره فى الشعر غير محمود فيما أرى .

ويعود إلى مخاطبة أحمد حشمت باشا فيقول :

إليـــك أبا حسن أنتمى فما ذل مولى إليك انتسب
عرفت مـــكانى فـــأديتنى وشرفت قدرى بدار الكتب

أما إذا انصرف حافظ إلى بؤسه ، فهناك تلقى شاعراً آخر غير هذا الذى تحدث إليك حديث العامة ، فى تلك القصيدة الشوهاء . هناك تلقى حافظاً ذلك البائس المرور الضائق بالدنيا ، يرسل زفرات حارة تصعد فى سماء الشعر فتستوى فى أعلى منازله :

سلام على الدنيا سلام مودع رأى فى ظلام القبر أنساً ومغنما
أضرت به الأولى فهام بأختها فإن ساءت الأخرى فويلاه منهما
فهبى رياح الموت نــكباً واطفئى سراج حياتى قبل أن يتحطما
فما عصمتنى من زمانى فضائلى ولــكن رأيت الموت للحر أعصما
فيا قلب لاتجزع إذا عضك الأسى فإنك بعد اليوم لن تتألما
ويا عين قد آن الجمود لمدمعى فلا سيل دمع تسكبين ولادما
ويا يد ما كلفتك البســـط مرة لذى منة أولى الجميـــل وأنعما
فلله ما أحلاك فى أنمـــل البلى وإن كنت أحلى فى الطروس وأكرما
ويا قـــدمي ما سرت بي لمذلة ولم ترتقي إلا إلى العـــز سلما

فلا تبطئى سيرا إلى الموت واعلمى بأن كريم القوم من مات مكرما
ويا نفس كم جشمتك الصبر والرضا وجشمتنى أن ألبس المجد معلما
فما اسطعت أن تستمرئى مر طعمه وما اسطعت بين القوم أن أتقدما
فهـــذا فراق بيننا فتجملى فإن الردى أحلى مذاقا ومطعما
ويا صدر كم حلت بذاتك ضيقة وكم جال فى أنحائك الهم وارتمى
فهلا ترى فى ضيقة القبر فسحة تنفس عنك الـكرب أن بت مبرما

هذا الشعر كما ترى ، يعلو عن تلك المرتبة التى نزل إليه شعره السابق ، فى بائيته التى يشكر فيها الوزير ويذكر أياديه . هذا شعر يصور لك حافظاً أصدق تصوير ، وهو يخاطب نفسه ويصور ما بينها وبينه من خلاف ، فيما يحملها عليه من تجشم الصبر واحتمال المـكاره ، وفيما تضيق به هذه النفس من أعباء ما يحملها . ثم ماينتهى إليه هذا الخلاف بينهما من حل موفق ، يراه هو الفراق بينه وبين هذه النفس ، ذلك الفراق الذى لا يجد حافظ أحلى منه مذاقا ولا أسـعد منه حالا . ثم انظر إلى هذا الحديث بينه وبين قلبه الذى يضيق بالحوادث والـكوارث . يريد حافظ أن يدله على ما فيه متسع ومتنفس ، فيدله على القبر يدعوه إليه لعل فيه حل هذه الضائقة .

٤

الشعر السياسى

من العسير أن نفرق بين ما نسميه اليوم شعراً سياسيا وما نسميه شعراً اجتماعيا ذلك ما جرى عليه الناس فى تقسيم الشعر الحديث حين يعنون بجمع شعر الشعراء ويقسمون الديوان أبواباً . فالشعر السياسى عندنا شعر اجتماعى ، والحديث السياسى إنما هو حديث مشكلة ، تعنى بها الأمة ، ولها فيها أثر ، ويتجه إليها تفكير الشعب عامته وخاصته . والشعر الاجتماعى فيه الكثير من مداخل السياسة فالتفرقة بين الاثنين عسيرة أو غير مأمونة .

ولكننا نقف عند بعض القصائد التى حواها ديوان حافظ فى باب السياسة ، فنجد له شعراً يتصل بالإنجليز وموقفهم من مصر ومن السودان ، والإنجليز لهم عميد فى مصر ينطق بلسان دولته ، و يتصرف بأهوائها . وله سلطان و بأس وأثر فى البلاد ، لا يمكن أن يسكت عنه حافظ . فهل كان موقف حافظ من هؤلاء الإنجليز موقفاً صريحاً واضحاً؟وهل كانت عقيدته السياسية إزاء الانجليز واضحة المعالم بينة الحدود؟... ذلك مالا يشهد به ديوان حافظ ، ولا يمكن أن يستدل عليه بين هذه القصائد التى أطلقها فى استقبال عميد بريطانى قادم ، أو لتوديع آخر راحل . أو فى حادث نكل فيه الإنجليز بالمصريين ، أو اختلفت فيه سياسة الانجليز مع المصريين .

نرى حافظا مداريا موار با ، لا يثبت على رأى صريح واضح فى مواقفه السياسية إزاء الانجليز فهو تارة يلين معهم ويجاملهم ويتعقب راجيا حسن المراجعة ، كما يكون التعقب بين الأصدقاء . وهو تارة أخرى ينظر إليهم نظرة الضعيف إلى القوى، يبهره سلطانهم حتى يكاد يهنئهم بذلك السلطان،وتهوله قوتهم حتى يكاد يرى الخضوع لهذه القوة فرضا واجب الأداء .

يعود العميد البريطانى اللورد كرومر من مصيفه إلى مصر بعد أن وقع حادث دنشواي ، فيستقبله حافظ بقصيدة فيها عتاب هين لين ، وفيها ضعف واستخذاء ،

يفرغه حافظ فى أسلوب تهكمى يحاول به أن لا يبدو الضعف ضعفا ، ولا الاستخذاء استخذاء . ولكنه ثوب شفاف ، قال :

قصر الدبارة هل أتاك حديثنا　　فالشرق ريع له وضج المغرب
أهلا بساكنك الكريم ومرحبا　　بعد التحية أننى أتعتب

إلى أن يخاطب العميد فيقول :

علمتنا معنى الحياة فمالنا　　لا نشرئب لها ومالك تغضب
فى دنشواى وأنت عنا غائب　　لعب القضاء بنا وعزّ المهرب
نكبوا وأقفرت المنازل بعدهم　　لو كنت حاضر أمرهم لم ينكبوا

ثم ينصرف إلى ذكر حادث دنشواى ، وما فعل فيه المستشار بالمصريين ، من تعذيب وتنكيل ويعود إلى العميد فيقول :

كن كيف شئت ولا تكل أرواحنا　　للمستشار فإن عدلك أخصب
فاجعل شعارك رحمة ومودة　　إن القلوب مع المودة تكسب
وإذا سئلت عن الكنانة قل لهم　　هى أمة تلهو وشعب يلعب
واستبق غفلتها ونم عنها تنم　　فالناس أمثال الحوادث قلب

لا شك أن حافظاً فى هذه القصيدة ، يتحدث بلسان الرجل الذى يلوم أمته ويرميها بالتفريط فى حقوقها ، تفريطا جعلها لقمة سائغة للغاصب . ولكنّ فى حديثه إلى العميد ضعفا غير مستور ولا مشكور . فهل كان سلطان العميد وبطشه وقوته مما قسر حافظاً على هذا الموقف وثلم سهامه التى يوجهها إلى الإنجليز ؟ ننظر فى ذلك لعلنا نجد شيئاً .

هذا العميد يوشك أن يرحل عن البلاد ويزول عنها سلطانه . فما يحافظ خوف منه ، وما به حاجة لأن يتملقه ، أو يحسن له عتابا أو يحسب له حسابا . بل جدير بحافظ أن يكون صادقا فيما يقول لا يدارى ولا يوارب ؟

فتى الشعر هذا موطن الصدق والهدى　　فلا تكذب التاريخ إن كنت منشدا

هذا المطلع وحده يشهد على حافظ ولا يشهد له . ففيه اعتراف ضمنى ، كما يقول رجال القضاء ، بأن ما قاله حافظ من قبل لم يكن صدقاً ولا رشداً ولم يكن وفاء بحق التاريخ ثم يقول :

لقد حان توديع العميـد و إنه حقيق بتشييع المحبين والعدا
سـلام ولو أنا نسىء إلى الألى أساءوا إلينا ما مددنا لهم يدا

ولـكنك تمضى فى القصيدة فتجد حافظا متحفظا ، ملاينا أحياناً . وستجده إن ذكر مثالب اللورد أو محامده ذكرها على أنها من أحاديث النـاس ، وليست من ابتداعه و إنشائه :

تشعبت الآراء فيك فقـائل أفاد الغنى أهل البلاد وأسعدا
وكانت له فى المصلحين سياسة ترخص فيهـا تارة وتشددا

***

وآخر لم يقصر على المال همه يرى أن ذاك المال لا يكفل الهدى
يناديك قد أزريت بالعلم والحجا ولم تبق للتعليم يا لُرْدُ معهدا
قضيت على أم اللغات و إنه قضاء علينا أو سبيل إلى الردى

هذا حديثه إلى اللورد الراحل ، وهو فى هذه القصيدة أقوى منه أسلوبا وأصرح رأياً ، منه فى قصيدته التى استقبل بها هذا اللورد عند عودته من المصيف . ولم يكن إذ ذاك مزمعاً الرحيل عن البلاد . ولـكن حافظاً كان أقوى فى موضع آخر من هذه القصيدة الدالية بعينها ، حين يخاطب وزراء مصر . استمع إليه يقول وقد استأسد :

فما عهد إسماعيل والعيش ضيق بأجدب من عهد لكم سال عسجدا
يناديك وليت الوزارة هيئـة من الصم لم تسمع لأصواتنا صدى
فليس بها عند التشاور من فتى أبىّ إذا ما أصدر الامر أوردا

و يخلص من هذا إلى دفع الحرج عن نفسه والتبرؤ من كل ما قال ، فيقول :

فهذا حديث الناس والناس ألسن إذا قال هذا صاح ذاك مفندا

ولو كنت من أهل السياسة بينهم   لسجلت لى رأياً و بلغت مقصدا
ولـكننى فى معرض القول شاعر   أضاف إلى التاريخ قولا مخلدا

وشرعة الإنصاف تقضى بأن لا نقسو ولا نشتد فى هذا البحث ، وأن لا نعنى بعقيدة حافظ السياسية أو بموقفه السياسى . فنحن نؤرخ لشاعر ولا نؤرخ لرجل سياسى . ونحن نزن القول على أنه شعر وأنه فن ، ولا نزنه على أنه رأى فى السياسة أو عقيدة . ولـكن حافظاً نفسه هو الذى جرنا إلى هـذا البحث . فقد عودنا على أنه إذا استكره على القول أو كان حذرا أو لم يكن صادقاً منطلقاً فيما يقول ، لم يكن لشعره ذلك الجمـال الفنى ، ولا تلك الروعة الأخاذة التى ألفناها منه حين يصدر عن عقيدة صحيحة أو إحساس صادق . فالجمال الفنى عند حافظ مرتبط بصدق الرأى والعقيدة .

وما ننسى أننا قلنا إن شرعة الانصاف تقتضينا أن نحـكم على الأشياء بما كان يحـكم عليها به فى زمانها ، لا فى زماننا . وأن نحـكم عقول الماضى فى الماضى وعقول الحاضر فى الحاضر . ومهما يكن من شىء ، فحافظ فى شعره السياسى كان مرآة العصر إلى حد بعيد . بل إن حافظاً على مافى شعره السياسى من حيطة وتقية وحذر ، كان يعبر عن آلام الشعب وآماله أصدق تعبير ، و يشتد و يعنف حين تعرض له هذه الآلام وهذه الآمال يائساً من الخير أو مؤملا فيه :

إلى من نشتكى عنت الليالى   إلى العبـاس أم عبد الحميد
ودون حماها قامت رجال   تروعنا بأصنـاف الوعيد
رمانا صاحب التقرير ظلما   بكفران العوارف والـكنود
وأقسم لا يجيب لنا نداء   ولو جئنا بقرآن مجيـــد
و بشر أهل مصر باحتلال   يدوم عليهم أبد الأبيد
فليت كروماً قد دام فينا   يطوق بالسلاسل كل جيد
و يتحف مصر آنا بعد آن   بمجلود ومقتول شهيــد
لننزع هذه الأكفان عنا   ونبعث فى العوالم من جديد

هذه القصيدة التى استقبل بها العميد الجديد السير غورست ، أقوى من قصيدتيه السابقتين فى توديع اللورد كرومر واستقباله فى عودته من المصيف . وحافظ فيها أكثر انطلاقا وأصرح رأياً ، وفى شعره كثير من جمال القوة أو من قوة الجمال إذا شئت .

فإذا مضى الزمان وأعفيت مصر من بعض قيود الاحتلال ، وخفت وطأة السلطان الإنجليزى عن البلاد ، وكانت ثورة مصر على الإنجليز مجابهة لهم بالعداء ثم كان إعلان استقلال مصر . وانطلقنا على متن الزمان إلى أوائل سنة ١٩٣٢ ، رأينا حافظاً أشد شجاعة فى مخاطبة الإنجليز وأقوى شعراً فى تصوير آمال المصريين ، فهو يخاطب الإنجليز بقوله :

أخاف عليكم عثرة بعد نهضة ... فليس لملك الظالمين دوام
أبعد حياد لا رعى الله عهده ... وبعد الجروح الناغرات وئام
إذا كان فى حسن التفاهم موتنا ... فليس على باغى الحياة ملام

ويخاطبهم مرة أخرى فيقول :

لا تذكروا الأخلاق بعد حيادكم ... فمصابكم ومصابنا سيان
حاربتم أخلاقكم لتحاربوا ... أخلاقنا فتألم الشعبان

ويشتد فى الوعيد والتهديد فيقول :

حولوا النيل واحجبوا الضوء عنا ... وأطمسوا النجم واحرمونا النسيما
واملئوا البحر إن أردتم سفينا ... واملئوا الجو إن أردتم رجوما
وأقيموا للعسف فى كل شبر ... كنستبلا بالصوت يفرى الأديما
إننا لن نحول عن عهد مصر ... أو ترونا فى الترب عظما رميما

هذا حافظ إذا زال عنه الخوف ولم تخنه الشجاعة وانطلق . ولكن فى يديه غل واحد يحول بينه و بين الانطلاق ذلك هو وظيفته الحكومية . فهو يحرص عليها ، وهى تمنعه من الانطلاق فى الشعر السياسى الحر المعبر عن شعور الشعب ، تعبيراً صحيحاً صادقاً . و إن لم تكن هى السبب فى تعويقه عن الانطلاق إلى أبواب الشعر الأخرى كما قدمنا .

ولم يغفل حافظ هذه العلاقة القائمة بين مصر والدولة العثمانية . فما ترك حادثا من الأحداث تهتز به أسباب الصلة بينهما ، إلا قال فيه شعراً . وهنا يختلف شعر الشاعر عنه فيما يقول من شعر يتصل بالسياسة الإنجليزية . هنا تبرز هذه الصلة الدينية التى كانت بين مصر وتركيا ، وتبرز هذه النزعة الشرقية التى تشترك فيها مصر وتركيا ، وتبدو من حافظ قوة لم نعهدها فى قصائده تلك .

حدث الانقلاب العثمانى سنة ١٩٠٩ ، وانتصر حزب جمعية الاتحاد والترقى التركية ، الذى كان يطالب بمنح الأمة التركية دستورها ويطالب بخلع السلطان عبد الحميد . وكان من أبطال هذه الحركة وزعمائها شوكت ونيازى والقائد أنور . وأنشد حافظ فى حفل أقيم بالأزبكية بالقاهرة قصيدة يخاطب فيها هؤلاء ، ويهنىء الأمة العثمانية بدستورها ، يقول فيها :

إذا شوكت الفاروق قام مناديا ... إلى الحق لباه نيازى وصاحبه
ثلاثة آساد يجانبها الردى ... وإن هى لاقاها الردى لا تجانبه
يصارعها حرف المنون فتلتقى ... مخالبها فيه وتنبو مخالبه
روت قول بشار فثارت واقسمت ... وقامت إلى عبد الحميد تحاسبه
(إذا الملك الجبار صعّر خده ... مشينا إليه بالسيوف نعاتبه)

وفى القصيدة قوة وانطلاق وجمال فنى ، ولكنها لا تخلو من ترسم خطى الأقدمين ، حين يتعرض الشاعر لوصف الجيش ومقارعة الأعداء وإقدام الأبطال . ولقد قلنا إن الوصف والتصوير فى غير الرثاء والحزن ليسا مما يمتاز بهما شعر حافظ ، ونحن لا ننسى ما قلناه من أن حافظا كان فى هذه المرحلة من حياته الشعرية ، لا يزال يترسم فى بعض قصائده ، خطى الأقدمين . فلم يكن مجدداً حراً فى تجديده ، فهو لا يزال يصف الجيش والحرب وآلة الحرب وصف الأقدمين لها .

رجال من الإيمان ملأى نفوسهم ... وجيش من الأتراك ظمأى قواضبه
صوالجه سمر القنا وكراته ... رءوس الأعادى والحصون ملاعبه

وفى موضع آخر يحيي الاسطول العثمانى فيقول :

بالذى أجراك ياريح الخزامى بلغى البسفور عن مصر السلاما

وتحميل ريح الخزامى سلاما كان من مذاهب الأقدمين ، وما أحسب أن شاعراً عصريا يركن إليها اليوم أو يعتمد عليها .

و بحسبنا هذا فى شعره السياسى .

٥

الوصـــف

أجد شيئا من القسوة فيما قاله الدكتور طه حسين عن حافظ فى باب شعره الوصفى ، و إن كان رأينا أن حافظا لم يكن شاعرا وصافا ولم يكن شاعراً قصصياً . ولـكن القسوة بادية فى قول الدكتور « ولم يكن حافظ عظيم الثقافة ولا عميقها فلم يـكن من الممكن ولا من اليسير أن يتجه إلى تلك الفنون الشعرية الخالصة ، التى تصل بين الشاعر و بين الطبيعة والتى ليس للسياسة ولا للنظام عليها سلطان لم تكن النجوم فى السماء ولا الرياض فى الأرض ولا النيل ولا الصحراء تلهم حافظا شيئاً . لأن حافظا لم يكن شاعر الطبيعة وإنما كان شاعر الناس »(١) .

هذا قول فيه كثير من الحق والصواب وليس من العدل أن نقول إن الطبيعة لم تلهم حافظا شيئا ، وأن ذلك متصل بضعف ثقافته . فما هى الطبيعة ؟ أليست هى تلك البيئة المـكانية والشعبية والزمانية والاجتماعية التى يعيش فيها الشاعر . وقد عاش حافظ فى طبيعة ألهمته شيئا كثيرا ، ألهمته هذه النظرة السوداء للحياة وألهمته هذا الأسى لاختلال الموازين الاخلاقية فى أمته ، وألهمته هذا الوفاء للأصدقاء . على أننى أتساءل عن أولئك الشعراء الذين نريد أن نسميهم شعراء الطبيعة ، والذين ألهمهم النيل وألهمتهم الصحراء وألهمتهم مجالى الطبيعة ، فكانوا شعراء الطبيعة ولم يكن حافظ منهم أين أولئك ومن هم ؟ والحق الذى لا أحيد عنه ، أن أدبنا العربى فقير فى هذا

(١) حافظ وشوقى ص ٢١١ .

النوع من الشعر ، ولا أغلو إذا قلت إن الشعر تنقصه ناحية الوصف نقصاً ملحوظاً . هل كان ذلك لأن الطبيعة هادئة وادعة رتيبة لا تثور لتثير الحس ، ولا تضطرب لتوقظ الوجدان ، ولا تقسو لتحرك العواطف ؟ أم كان ذلك لأن الشرقيين يعنون بالظواهر الروحية والمعنوية للحياة ، أكثر مما يعنون بالماديات من جبال وتلال و بحار وأنهار ومروج وأزهار ؟ لست أدرى السبب فى تخلف شعراء الشرق عن الابداع فى وصف مجالى الطبيعة ، ولـكننى أدرى أن ليس من الأسباب المقبولة ضعف الثقافة أو قلة الدراية أو قصور التعليم . و بين شعرائنا المعاصرين من تزود من الثقافة بقدر صالح وتفقه بأكثر من لغة أجنبية على لغتـه العربية ، وتمرس بمذاهب الشعراء الغربيين الذين أجادوا وصف الطبيعة وألهمتهم . ومع ذلك لم يوفقوا إلى هذا الإلهام ولم يبرزوا فى صفوف الشعر الوصفى . فليس من الانصاف أن ننعى هذا التقصير على حافظ وحده ، وليس من الانصاف أن نعزوه فى حافظ إلى ضعف ثقافته أو قلة حظه من العلم والمعرفة .

حاول حافظ أن يصف البحر وقد ركبه فى رحلته إلى إيطاليا ، فـكان وصفه للبحر من الزاوية التى نظر منهـا إليه . لم يصف جمال البحر وإنما وصف هوله وإرغاءه وإزباده . وكأنه فى هذه القصيدة ، لم يعمد إلى وصف البحر بقدر ما عمد إلى وصف خوفه من البحر وكراهيته له فابتدأ القصيدة بقوله :

عاصف يرتمى وبحر يغير   أنا بالله منهمـا مستجير

وكأن الأمواج وهى توالى   محنقات — أشجان نفس تثور

ازبدت ثم جرجرت ثم ثارت   ثم فارت كما تفور القدور

وما أهون البحر إذا كانت ثورته كفورة القدور ، ولـكننا قلنا إن حافظاً لم يكن وصّافا . ومع هذا فإذا أراد حافظ أن يصف مشهداً محزنا وفق فى ذلك وأتى بوصف رائع محزن ، ورسم صـورة دقيقة تعجب لها وتعجب من صدورها من حافظ الذى اتفقنا على أنه ليس بالشاعر الوصّاف . هذه قصيدته فى زلزال مسّينا

الذى وقع فى سنة ١٩٠٨ ، فاترة عند وصف البراكين والبحار وأفاعيلها ، ولكنها تقوى عندما تصل إلى ما أصاب الناس من هول وذهول ، وقد دهمتهم النار وابتلعت الأمواج منهم جمعاً :

رب طفل قد ساخ فى باطن الأر ض ينادى أمى أبى أدركانى
وفتاة هيفاء تشوى على الجمـ ر تعانى من حره ما تعانى
وأب ذاهل إلى النار يمشى مستميتا تمتد منه اليدان
باحثا عن بنـاته وبنيه مسرع الخطو مستطير الجنان
تأكل النار منه لا هو ناج من لظاها ولا اللظى عنه وانى
غصت الأرض ، اتخم البحر مما طوياه من هـذه الأبدان

أما وصفه للخمر فلم يتحرر فيه من قيود الأقدمين . فقد نحا نحوهم ولم يأت فيها بجديد . ولعل أبا نواس لم يترك له فيها شيئاً :

هذا الظلام أثار كامن دائى يا ساقيى علىّ بالصهباء
بالكاس أو بالطاس أو بإثنيهما أو بالدنان فإن فيه شفائى
قربوا الصلاة وهم سكارى بعدما نزل الكتاب بحكمة وجلاء

وهو فى موضع آخر يترسم خطو الأقدمين أيضاً فيقول :

أوشك الديك أن يصيح ونفسى بين هم وبين ظن وحدس
يا غلام المدام والكاس والطا س وهيىء لنا مكانا كأمس
أطلق الشمس من غياهب هذا الـ دن واملأ من ذلك النور كأسى
خمرة قيل إنهم عصروها من خدود الملاح فى يوم عرس

ونستطيع أن نقول إن حافظاً فى خمرياته لم يقصد أن ينظم فى الخمر قصيدة ، ولكنها خطرات نفس كانت تخطر له فى مجالس الأصدقاء أو فى مجالس الشراب ، فيرسلها أبياتا من الشعر لا تستكمل ما ينبغى أن يتوفر فى قصيدة خمرية . وأبياته هذه لا تخرج عن المداعبات التى كانت تجرى بينه وبين أصدقائه ، وكان حافظ حريصا على أن لا تنشر بين الناس كما كان حريصا على أن لا ينشر شعره الفكاهى .

٦

الرثاء والشكوى

الرثاء والشكوى وما إلى الرثاء والشكوى من شعر حزين ، يعبر عن أسى النفس و يصعد زفرات حارة صادقه كأنه قطع من هذه النفس قد صهرتها الكارثة ، تتطاير تباعا غاضبة ملتهبة كما يقذف البركان بما يغتلى فى جوفه . ذلك هو ما بلغ فيه حافظ مبلغاً لا مطمع لغيره فيه ، ولقد درسنا حياته ورأينا كيف عاش بائساً يائساً ، وكيف كانت بيئته التى انفق فيها من شبابه صدراً كبيرا ومن كهولته ردحاً طويلا . وكيف كانت هذه البيئة تطبع نفسه ، وكيف كان اختلال الموازين الاخلاقية يحز فى قلبه ، واضطراب العاطفة بين الناس يؤرقه و يؤرج نار السخط والكراهية للمجتمع فى هذا القلب الحزين .

وعلمنا من حياته الأدبية أيضاً حرصه على اللفظ الفخم الضخم ، وانتقاءه الدقيق للألفاظ المناسبة للمقام ، وما استقام له من قوة الرصف البيانى وما كان فى طبعه وذوقه مما يعينه على تخير الألفاظ التى لها جرس ونغم ، يثير الخواطر و يستفز المشاعر . فإذا اجتمع هذا كله لحافظ لم يكن عجباً أن يكون رثاؤه فى الطبقة العليا من الشعر ، وأن يكون حزنه صادقا مصوراً لحقيقة ما فى نفسه .

كان حافظ أحرص الناس على مودة الأصدقاء ، فان فجع فى هذه المودة تقطعت نفسه حسرات وكان يرى أن موت أصدقائه ليس إلا اقتطاعا لبضعة من قلبه ، تذهب مع الذاهب ولا تعود ، فهو يبكيها ويحسن البكاء عليها . وكان يرى أن آماله فى الحياة قد تعلقت بأولئك الذين يرتبط بهم ويبذل الوفاء لهم ، فإن نقص منهم واحد وولى عن هذه الحياة ، فقد تحطم ركن من أركان آماله ، وقد ضاقت رقعة الرجاء الذى يعيش تحت ظلاله ، فهو يبكيه و يحسن البكاء عليه

ولكن حافظاً كشاعر اجتماعى ، كان يدعى أحيانا أو تدعوه المناسبات أحيانا لأن يرثى من ليس له فى نفسه هذه المنزلة . أو أن يرثى من لم تأس نفسه على فراقه أو تبتئس بوفاته . فهل كان شعره إذ ذاك فى مرتبة من السمو تدانى تلك المرتبة التى وصفنا ؟ إنك تستطيع من قراءة مراثيه أن تتبين منزلة الراحل من نفسه ، فإن وجدت شعراً قوياً حزيناً حكمت بأن الراحل كان صديقاً محبباً لحافظ وإلا فلا .

أما سبيله فى الرثاء فتخالف سبيل الأقدمين فى كثير من الوجوه . وأخصها أن الأقدمين كانوا يفترضون أن المكارم كلها قد اجتمعت فى الراحل فمن لهذه المكارم بعده ، يفترضون أن الكرم والشجاعة وما إلى الكرم والشجاعة من خلال كانت متمثلة فى الراحل ومتى زال عن الدنيا فقد نضب معينها منها .

أما حافظ فى رثائه الصادق ، فقد كان يطوف بهذه المعانى فى رفق وأناة ثم ينصب على تحليل الصفات والخلال المعهودة فى الراحل ويأسى لفقدانه . لا لأن هذه الخلال لم يعد لها من تتمثل فيه ، بل لأن هذه الخلال قد رزئت بفقده ، والفرق واضح بين المذهبين . ثم يرجع حافظ إلى نفسه فيصور أساها ويلتفت إلى الدنيا فيصور أذاها . وقل أن يغفل ذكر الموت الذى يرى شبحه يدنو منه كلما رحل عن الدنيا صديق له . كأن هؤلاء الأصدقاء وهؤلاء الرجال كانوا حائلا بين حافظ والموت ، فكلما اخترم واحد منهم ضعفت جبهة الدفاع عنه . وحافظ يحسن تصوير الحزن ، أكثر مما يحسن تصوير الرزيئة أو الفاجعة . وما فى ذلك من عجب ، فهو قد ألف الحزن وعرفه فهو قديم فى نفسه . أما الفاجعة التى يقف عندها فهى جديدة تتجدد برحيل الراحلين على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم من نفسه ، ومن الأمة التى هم منها .

ولعل أصدق ما يعبر به عن أسباب تفوق حافظ فى الرثاء ، ما قاله عنه الدكتور طه حسين : [1] « هذا أحد الأمرين اللذين كانت تمتاز بهما نفس حافظ . حس قوى

---

(١) حافظ وشوقى ص ١٥٣ .

دقيق وخلق رضى كريم فأما الأمر الآخر فصلة غريبة متينة بين هذه النفس القوية الكريمة وبين نفوس الشعب وميوله وأهوائه وآماله ومثله العليا . . » إلى أن قال « لا أعرف بين شعراء هذه الأيام شاعرا جعلته طبيعته مرآة صافية صادقة لحياة نفسه ولحياة شعبه كحافظ رحمه الله . فالذين يقرءون شعره الآن يؤخذون بهاتين الصورتين الواضحتين كل الوضوح صورة الشعب وما يجد من ألم وأمل ، وصورة حافظ وما يحس من يأس أو رجاء » هذا كلام صحيح وتصوير واضح صادق لشعر حافظ الحزين ولحزن حافظ الشاعر .

وهذه قصيدته في رثاء الأستاذ الإمام استشهد بها الدكتور طه حسين ، فارجع إليها تجد فيها جمالاً وروعة وصدقا .

قلنا إن حافظا فى مراثيه يحسن تصوير الحزن أكثر مما يحسن تصوير الفاجعة . وها هو ذا يرثى مصطفى كامل فى حفل الأربعين فتمر بأبيات القصيدة من مطلعها ، فتجد فيها رثاء قوياً شديداً . ولكن إذا انتهى الشاعر إلى حزنه وإلى نفسه كان أقوى وكان أشد .

قد كنتُ تحت دموعهم وزفيرهم ما بين سيل دافق وشرار
أسعى فيأخذنى اللهيب فأنثنى فيصدنى متدفق التيار
لو لم ألذ بالنعش أو بظلاله لقضيت بين مراجل وبحار

ولا تؤخذ عليه هذه المبالغة كما تؤخذ على الشعراء فى بعض الشعر ، فهى مبالغة خفيفة الظل مقبولة .

وقد قلنا إن حافظاً كان يرى في موت أصدقائه إنذاراً بدنو أجله . وقد ذكر هذا فى قصيدة أنشدها فى حفل أقيم لذكرى الأستاذ الإمام عام ١٩٢٢ :

آذنت شمس حياتى بمغيب ودنا المنهل يا نفس فطيبى
أن من سار إليه سيرنا ورد الراحة من بعد اللغوب
قد مضى (حفنى) وهذا يومنا يتدانى فاستثيبى وأنيبى
وارقبيه كل يوم إنما نحن فى قبضة علام الغيوب
اذكرى الموت لدى النوم ولا تغفلى ذكرته عند الهبوب

وذكر حفنى ناصف فى هذا المقام له سبب تحدث به الأدباء . ذلك بأنه لما توفى الشيخ محمد عبده رثاه على القبر ستة أولهم الشيخ احمد أبو خطوه ثم حسن باشا عاصم ثم حسن باشا عبد الرازق الكبير ثم قاسم أمين بك ثم حفنى ناصف ثم حافظ ابراهيم . واتفق أن مات الأربعة الأولون على ترتيب وقوفهم للرثاء ، ولاحظ ذلك المرحوم حفنى ناصف وكان أن مرض حافظ فعاده حفنى ناصف وكتب له هذه الأبيات وفيها من رقة حفنى ما عرف عنه :

أتذكر إذ كنا على القبر ستة ... نعدد آثار الإمام ونندب
وقفنا بترتيب وقد دبّ بيننا ... ممات على أثر الرثاء مرتب
أبو خطوة ولى وقفاه عاصم ... وجاء لعبد الرازق الموت يطلب
فلبى وغابت بعده شمس قاسم ... وعما قريب نجم محياى يغرب
فلا تخش هلكا ما بقيت وإن أمت ... فما أنت إلا خائف تترقب
فخاطر وقع تحت القطار ولا تخف ... ونم تحت بيت الوقف وهو مخرب
وخض لجج الهيجاء أعزل آمنا ... فإن المنايا عنك تنأى وتهرب

وقد كان أن مات حفنى ناصف رحمه الله فأصبح حافظ خائفاً يترقب وفى ذلك يقول من تلك القصيدة :

قد وقفنا ستة نبكى على ... عالم المشرق فى يوم عصيب
وقف الخمسة قبلى فمضوا ... هكذا قبلى وإنى عن قريب
وردوا الحوض تباعا فقضوا ... باتفاق فى مناياهم عجيب
أنا مذ بانوا وولى عهدهم ... حاضر اللوعة موصول النحيب
هدأت نيران حزنى هدأة ... وانطوى حفنى فعادت للشبوب

ومن ألم بشعر حافظ الحزين ، استوقفته هذه القصيدة التى قالها فى رثاء المغفور له سعد زغلول باشا . وقد كان سعد يحب حافظاً ويأنس لمجلسه ويقربه منه . وكان حافظ يذكر سعدا ويحبه ، ولو أن حافظاً كان يميل إلى الأحرار الدستوريين الذين

كان بينهم و بين سعد جفوه وكان زعيم الأحرار الدستور يين المغفور له محمد محمود باشا صديق حافظ وابن من له عليه أياد يذكرها ولا ينساها .

مات سعد زغلول فى أغسطس سنة ١٩٢٧ وأقيم حفل لتأبينه وكان حافظ يسكن إذ ذاك فى حلوان . فرأيته عند الأصيل يمشى فى حديقة منزله يرسل أنغاماً حزينة كأنها أنات المريض أو زفرات المحزون ، فقطعت عليه هذه الأنات أسائله عما به فيقول رثيت سعداً بأبيات أعجبتنى ولكن مطلع القصيدة لم أوفق إليه بعد ، وأخذ يسمعنى قوله :

بلغ المشرقين قبل انبلا ج الصبح أن الرئيس ولى وغابا
وانع للنيرات سعداً فسعد كان امضى فى الأرض منها شهابا
قدّ يا ليل من سوادك ثوبا للدرارى وللضحى جلبابا

ثم سكت طويلا وهو لا يزال يمشى فى حديقته وامشى معه . ثم أخذ يقول بصوت عال إيه . . إيه . . يكررها كالمكروب الذى لا يجد لكربه متنفساً . ثم وقف وقال هاهى . . ها هى . . جاءت . .

إيه يا ليل هل شهدت المصابا كيف ينصب فى النفوس إنصبابا

ووقف ثم نظر إلى وقال « قلى بربك ما رأيك فى قولى ينصب فى النفوس إنصباباً . هذا المفعول المطلق أليس بليغاً . فضحكت منه ثم تلا على بعض أبيات القصيدة وهو معجب بالمطلع . رحمه الله لقد كان معتداً بشعره معتداً بقدره بين الشعراء .

وقلنا إن حافظاً كان يحسن وصف الحزن أكثر مما يحسن وصف الرزيئة أو الفاجعة . استمع إليه فى هذه القصيدة بعد ذلك المطلع الرائع و بعد أن انصرف إلى مخاطبة الليل يقول .

قدّ يا ليل من سوادك ثوبا للدرارى وللضحى جلبابا
انسج الحالكات منك نقابا واحب شمس النهار ذاك النقابا

قل لها : غاب كوكب الأرض فى الأر ... ض فغيبى عن السماء احتجابا
والبسينى عليه ثوب حـــداد ... واجلسى للعزاء فالحـــزن طابا

ولقد عاب بعض النقاد على حافظ أن هذا الخيال شعبى عامى مبتذل ، وأنه تصوير لمشهد لا ينبغى أن يسف إليه شاعر فحل . ولست أرى فيه شيئاً من ذلك ولا أرى فى تصوير الحزن كما يقع الحزن فى نفس العامة ولا فى تصوير مجالس العامة الحزينة كما ألفها الناس عيباً ولا إسفافاً فى الشعر . على أن هذا المعنى لم يكن جديداً من حافظ ، وهذه الصورة لم تكن مبتكرة . فقد سبقه إليها ابن زيدون ولكن حافظاً كان ابلغ تصويراً وأدق . قال ابن زيدون .

ألم يأن أن يبكى الغمام على مثلى ... ويطلب ثأرى البرق منصلت النصل
وهلا أقامت أنجم الليل مأتماً ... لتندب فى الآفاق ماضاع من نثلى

انظر إلى حافظ فى هذه القصيدة وقد أذهله المصاب وأذهل بشعره السامعين ، فانطووا معه فى الذهول وجرفهم فى تياره العنيف :

اين سعد فــذاك أول حفل ... غاب عن صدره وعاف الخطابا
لم يعود جنـــوده يوم خطب ... إن ينادى فـــلا يرد الجوابا
عل أمراً قـــد عاقه عل سقما ... قد عراه لقـــد أطال الغيابا
أى جنـود الرئيس نادوا جهاراً ... فإذا لم يجب فشقوا الثيـــابا
إنها النـكبة التى كنت أخشى ... أنها السـاعة التى كنت آبى
إنها اللفظة النى تنســف الأنف ... س نسفاً وتقفر الأصـــلابا

ويخاطب حافظ الإنجليز فى هذا الرثاء ، فيعود إلى ماسبق له أن خاطبهم به فى شعره السياسى ، الذى أسلفنا الحديث عنه حين قال لهم :

حولوا النيل واحجبوا الضوء عنا ... واطمسوا النجم واحرمونا النسيما
واملئـوا البحر إن أردتم سفينا ... واملئوا الجـو إن أردتم رجوما

ولـكنه اليوم يقول لهم فى مرثية سعد :

فأحجبوا الشمس واحبسوا الروح عنا · وامنعونا طعامنـا والشرابا
واستشفوا يقيننا رغم ما نلـ · ـقى فهل تلمحون أرتيـابا
قد ملـكتم فم السبيل علينا · وفتحتم لـكل شـعواء بابا
وأتيتم بالحـائمات ترامى · تحمل الموت جاثماً والخرابا
وملأتم جوانب النيل وعداً · ووعيداً ورحمة وعـذابا
هل ظفرتم منـا بقلب أبى · أو رأيتم منا إليكم مثـابا
لا تقولوا خلا العرين ففيه · ألف ليث إذا العرين أهابا
فأجمعوا كيدكم وروعوا حماها · إن عند العرين أسدا غضابا

وهو هنا أقوى وأبلغ ما فى ذلك شك .

٧

فـكاهة حافظ

فإذا خلا إلى مجالس أصدقائه فهو رجل آخر ، رجل مرح طروب يرسل الفـكتة فى سرعة و براعة . حاضر الذهن لها يتلقفها من كل لفظ ومن كل معنى ومن كل شىء يملأ المجلس بشراً وسروراً حتى تـكاد لا تصدق أن هذا الرجل هو حافظ ابراهيم ، شاعر مصر الحزين ، ولـكن هو بعينه . فهذه الحياة التى حييها حافظ ، وهذا البؤس الذى امتحن به ، قد استحالا فى نفسه الى سخرية بالحياة واستهانة بقيمها . ووجد لها متنفساً فى مجال النـكتة التى طبع عليها المصريون وأولعوا بها واشتهروا بالبراعة فيها .

فحافظ فى مباذله وفى مجالسه وفى تندره رجل مصرى ، كما هو فى شعره شاعر مصرى . ولـكنه حرص على أن لا يظهر هذه الروح المرحة فى شعره لأنه يخشى نقد الناقدين . والشعر الفكه لا يحتمل تلك القيود التى يلتزمها الشعر الجاد ، ولا يتقيد

بالبلاغة والسمو اللذين يتقيد بهما الشعر فى غير مواطن الفكاهة والدعابة . وما أثر عن حافظ من الشعر الفكه إنما كان اغلبه حديث مجالس لم يقصد حافظ أن يؤثر عنه أو يدون له فى ديوان . وإنما تلقفه أصحاب حافظ وتذكروه اعجابا بظله الخفيف ونسجه الرقيق على أن هذه الروح كانت تبدو منه أحيانا فى شعره الذى جمعوه فى باب من ديوانه اسموه باب الأخوانيات .

وكان حافظ يجرى فى ذلك الشعر على طبعه . فلو رجعنا بالذاكرة إلى حياة حافظ ، لذكرنا مخالطته فى طنطا للدراويش وادعياء الطريق والمجاذيب ، وتندره عليهم . هذه الصورة لا تزال فى نفس حافظ يذكرها ولو عمد إلى القول فى غير باب التندر والفكاهة .

أخرق الدف لو رأيت شكيبا وأفضّ الاذكار حتى يغيبا
هو ذكرى وقبلتى وامامى وطبيبى إذا دعوت الطبيبا
فسلوا سبحتى فهل كان تسبيـ ـحى فيها إلاّ شكيبا شكيبا
وإذا ادنف الشيوخ غرام كنت فى حلبة الشيوخ نقيبا

وينظر إلى بعض العلماء الذين يستعينون بكبر العمامة ، على الرفع من أقدارهم فى أنظار العامة وهم لا يمتون إلى العلم بصلة فيقول :

كم عالم مد العلوم حبائلا لوقيعة وقطيعة وفراق
وفقيه قوم ظل يرصد فقهه لمكيدة أو مستحل طلاق
يمشى وقد نصبت عليه عمامة كالبرج لكن فوق تل نفاق
يدعونه عند الشقاق وما دروا أن الذى يدعون خدن شقاق

وتمثل البيئة الأزهرية التى خالطها حافظ فى صباه فى القاهرة وطنطا، فى هذه الدعابة التى داعب بها حفنى ناصف ، وكان حفنى فى مستهل دراسته طالبا بالأزهر وألقاها قصيدة فى حفل أقيم بطنطا لتكريم حفنى ناصف ، حين انتقل من القضاء إلى تفتيش المعارف عام ١٩١٢ ، يقول فيها :

فكل رب يراع في مصر خريج حفني
إن قال شعرا فراح تدار في يوم دجن
أو قال نثروا فروح يجتازنا غب مزن
فإن بدأت بقول منه فبالكأس ثن
وطر إلى اللهو وارغب عن حكمة المتأنى
لولا الحياء ولولا ديني وعقلي وسنى
لقمت في يوم حفني أدعوا لسكرة ينى

إلى أن يقول :

لا تنس عيشا تولى ما بين شرح ومتن
ولّى شبابك فيه ما بين مدّ وغن
وذقت من (جاء زيد) ومن شروح (الشمُنى)
ومن حواش الحواشى على متون (ابن جنى)
ما لم تذقك الليالى قلبن ظهر المجن
أيام (سلطان) يلهو بعشه ويغنى
يبيت يقصع ما لم أسمه أو أكنى
يشكو إليك وتشكو إليه عيشة غبن
أيام يدعوك حفنى من الحياة أجرنى
هات المسدس إنى سئمت مشى وجبنى
من لى بدرهم لحم عليه حبة سمن
قرمت والله حتى صاحت عصافير بطنى
أيام عيدك يوم تفوز فيه بدهن

هذا الشعر الخفيف يداعب فيه حافظ صديقه حفني ناصف ، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى وقاره و إلى نفسه الحزينة فيقول :

أخشى عليك المقـايا حتى كأنك منى
وإن عــــراك هزال هيأت لحـدى وقطنى

يشير إلى تلك القصة التى ذكرنا فى ترقب حافظ الموت بعد موت حفنى ، جريا على الترتيب الذى وقفوا به على قبر الأستاذ الأمام .

وما أحسب أن حفلة التكريم التى ألقيت فيها هذه القصيدة ، إلا كانت مجاسا لأصـدقاء وخلصاء لحفنى و حافظ . وإلا فلو كانت من تلك المجامع الحافلة بالأدباء والشعراء وكبار الرجال ، لما سمح حافظ لنفسه أن يلقى فيها هذا الشعر الفكه الهين .

أما حسن دعابته فى شعر جيد رصين ، فيتمثل فى هـذه الدعابة التى وجهها إلى الدكتور محجوب ثابت ولها قصة . كان الدكتور محجوب ثابت طبيباً متقدماً فى السن وله نصيب فى أحداث السياسة والاجتماع الجارية فى عصره . وكان يعنى عناية خاصة بالسودان ، وكان إذا تحدث فى السياسة طوح بالحديث فى جوانب متعددة كأنه عليم خبير بسياسة العالم كله . وكان ينطق بالقاف فى كلامه العامى على غير عادة المصريين ، ويكثر من استعمال الألفاظ ذات القاف . واشتهر بالتراخى فى العناية بعادتيه الطبية وصرف همه للسياسة ، يسـعى عن طريقها إلى اقتعاد مكان بين نواب البرلمان .

وكان خفيف الظل حلو الحديث وله بحافظ ومجالسه صلة وثيقة . استضافه سعد زغلول فى منزله الريفى بصحبه حافظ وآخرين ، وفى الصباح جاس سعد وصحبه إلى مائدة الإفطار وتخلف الدكتور محجوب ثابت وطال انتظارهم له . ثم حضر فسئل عن سبب تأخره فأجاب بفكاهته المعهوده بأنه كان يحلم حلماً وتعوق عن الحضور حتى ينتهى الحلم . فطلب منه سعد أن يقص عليهم الحلم فقال « رأيتنى راكباً ثوراً كبيرا وآخذا بقرنية والثور يجرى بى جرياً سريعاً ومن خلفه عدد كبير من الحمير » فقال سعد زغلول « فسر لنا هذا الحلم يا حافظ » وكان حافظ يعتقد فى دلالات الأحلام . فقال مفسرا « أما الثور الذى يركبه الدكتور فهو كرسي فى مجلس

النواب . وأما أخذه بقرنية فزوجة يتزوجها الدكتور » قال سعد « فما هذه الحمير التى تجرى وراءه ؟ » قال حافظ « أولئك هم الناخبون » وانفتل حافظ من الإفطار ونظم قصيدته فى هذا الحادث وهى من أعذب الشعر القوى المتين ومن أدل شعر حافظ على روحه وخفته وسرعة خاطره ومصريته فى النكتة .

يرغى و يزبد بالقافات تحسبها ... قصف المدافع فى أفق البساتين
من كل قاف كأن الله صورها ... من مارج النار تصوير الشياطين
قد خصه الله بالقافات يعلكها ... واختص سبحانه بالكاف والنون
يغيب عنه الحجا حينا ويحضره ... حينا فيخلط مختلا بموزون
لا يأمن السامع المسكين وثبته ... من كردفان إلى أعلى فلسطين
بينا تراه ينادى الناس فى حلب ... إذا به يتحدى القوم فى الصين
ولم يكن ذاك عن طيش ولا خبل ... لكنها عبقريات الأساطين
يبيت ينسج أحلاما مذهبة ... تغنى تفاسيرها عن (ابن سيرين)
طوراً وزيراً مشاعاً فى وزارته ... يصرف الأمر فى كل الدواوين
وتارة زوج عطبول خدلجة ... حسناء تملك آلاف الفدادين
يعفى من المهر اكراما للحيته ... وما أظلته من دينا ومن دين

٨

أسلوب حافظ

كان حافظ من أشد الشعراء حرصاً على اختيار اللفظ وتذوق الجرس الذى يقع فى أذنه وفى نفسه حين يختاره وكان حريصا على أن تكون الفاظة فخمة ضخمة تحرك المشاعر وتثير العواطف . وكان أشد ما يكون حرصا على ذلك فى مطالع قصائده، يسعى وراء اللفظ فإن لم يجد فيه القوة التى تثير ، احتال على ذلك بالتكرار . يكرر اللفظ الواحد أو الجملة الواحدة، مرة وأكثر من مرة ، ليثير السامع ويسترعى انتباهه، ويجرفه معه فى تياره ويملك عليه عواطفه يصرفها كما يشاء . وما أكثر ما تصطبغ مطالعه بالصبغة الدينية. يستعمل ألفاظ الدين ليجتذب بها القلوب ويتصيد بها المشاعر وهو يعلم أن الصيغ الدينية لها فى القلوب وفى الأسماع نغم محبوب جذاب .

وكان حريصا هذا الحرص فى اختيار القافية المناسبة للموقف فإذا ، كان الموقف حزينا أو رهيبا أو جليلا اختار له هذه الألف التى يمتد بهـا الصوت ويصعد على طولها ، متعلقة به الأسماع والأذهان ، كما فعل فى مرثية سعد وفى غيرها .

وقد مثل تكراره للفظ واستعمال الصيغ الدينية قوله :

هنا جنان تعالى الله بارئه ضاقت بآماله الأقدار والهمم
هنا فم وبنان لاح بينهما فى الشرق فجر تحيي ضوءه الأمم
هنا فم وبنان طالما نثرا نثراً تسير به الأمثال والحكم
هنا الشهيد هنا رب اللواء هنا حامى الذمار هنا الشهم الذى علموا

سبع مرات يكرر لفظ هنا ليوقظ السامع وليأخذه معه فى غمرة انفعاله :

سلام على الإسلام بعد محمد سلام على أيامه النضرات
على الدين والدنيا على العلم والحجا على البر والتقوى على الحسنات

ومن أحسن الأبيات فى هذه القصيدة :

ووفقت بين الدين والعلم والحجا　　فأطلعت نورا من ثلاث جهات

ومن المُثُل لاستعماله الصيغ الدينية قوله :

إنى أرى وفؤادى ليس يكذبنى　　روحاً يحف بها الإكبار والعظم
أرى جلالا أرى نورا أرى ملكا　　أرى محيـا يحيينا و يبتسم
الله أكبر هذا الوجه أعرفه　　هذا فتى النيل هذا المفرد العلم
غضوا العيون وحيـوه تحيته　　من القلوب إذا لم تسعد الكلم

وقد اكتسب حافظ بطول المران وكثرة الاطلاع ، حاسة تدله على أصالة اللفظ فى اللغة وعلى دلالته الدقيقة . فقل أن تسأله عن معنى حتى يدلك على اللفظ العربى الأصيل المعبر عنه ، ثم يسرد ما له من مرادفات . ثم يبين لك ما بين هذه المرادفات من فوارق دقيقة نحيفة ، قل أن يدركها غير حافظ ممن تمرسوا بفقه اللغة .

نثر حافظ

ليس بين أيدينا من نثر حافظ شيء يعتد به غير ترجمته لكتاب « البؤساء » عن الفرنسية . وقد قلنا إن حافظاً لم يكن ضليعاً باللغة الفرنسية وإن من أصدقائه من كان يعينه ويترجم له . ولذلك فالنظر فى ترجمة حافظ للبؤساء ينبغى أن يكون من ناحية أسلوبه العربى ؛ وليس من ناحية المطابقة بين الأصل المترجم عنه ، والترجمة العربية .

فأما أسلوب حافظ فى هذه الترجمة ، فمن أرفع أساليب النثر . تقرؤه فلا تشعر فيه بهذه اللكنة أو العجمة أو النبو ، التى يضطر إليها المترجمون إلى العربية أحيانا لتأثرهم بالأصل الأجنبى وعجزهم عن إلباس المعنى الغربى لباسا عربيا صريحا صحيحا يقع فى هذا الحرج كثير من المترجمين ومنهم الضليع فى العربية ، ولكنه حين يترجم يتغلب المعنى الأجنبى على تفكيره حتى ينسيه الأسلوب العربى لأن هذا المعنى الأجنبى قد يكون جديدا على الفكر العربى ، ولذلك يحتال المترجم على تطويع العبارة العربية وفق له . فتصدر العبارة وعليها مسحة أجنبية ينفر منها الذوق العربى . أما حافظ فلم يقع فى هذا الحرج فى ترجمته للبؤساء مطلقا . بل إنك لتقرأ الكتاب بجزئيه ، فلا تشعر بأن هذه ترجمة عن لغة أجنبية . ولكن أسلوب حافظ فى جزء كبير من أول الكتاب ، كان أسلوبا فيه شىء من الألفاظ الغريبة على أسماعنا . حتى لقد قيل إن قارئه لا يستغنى عن الاستعانة بمعجم عربى ليفهمه . نعم تعمد حافظ ذلك فى جزء كبير من أول الكتاب ، ولكنه لم يثبت على ذلك وعاد إلى المألوف المعروف . ويلاحظ أنه استعان كثيراً ببعض العبارات والألفاظ القرآنية ، أدخلها فى أسلوبه مدخلا حسنا محموداً .

أما الأسلوب كله وبوجه عام ، فأقرب إلى الجدة منه إلى القدم . وهو فى بعض مذاهبه أدنى إلى أسلوب رسائل الصاحب بن عباد ، بل إن كثيراً من ألفاظ الصاحب تقع لك فى الترجمة الحافظية إن بحثت عنها .

وفى رسالة منه إلى الأستاذ الإمام محمد عبده بعث بها إليه من السودان ، نثر يتخلل الشعر . بحسبك أن تقرأ أوله « كتابى إلى سيدى وأنا من وعده بين الجنة والسلسبيل ومن تيهى به فوق النثرة والأكليل . وقد تعجلت السرور وتسلفت الحبور . . . الخ » ، لتعلم أنه كان فى هذا الأسلوب مقلدا للقدماء مترسما خطاهم لا يخرج عن أسلوب ابن زيدون فى رسالته الجدية والهزلية ، إلا ليدخل فى أسلوب الحريرى ويتحدث بلسان السروجى . أو ليطالع علينا بروح بديع الزمان الهمذانى .

ليس فى هذا النثر شىء من طبع حافظ ولا من روحه . وما كان حافظ ليكتب نثرا بهذا الأسلوب ، وهو صاحب الشعر الميسر السلس العذب . ولـكنه حمل نفسه على غير سجيتها مقلدا وعامداً . وأراد أن يطلعك على علمه باللغة وألفاظها الغريبة عليك ، وعلى علمه بالتاريخ العربى القديم .

« وجمعت فيه بين ثقة الزبيدى بالصمصامة والحارث بالنعامة فلم أقل ما قاله الهذلى لصاحبه حين نسى وعده وحجب رفده : يا دار عاتـكة التى أتغزل » بل أناديه نداء الأخيذة فى عمورية ، شجاع الدولة العباسية . . . الخ » وما يحسن بنا أن نمضى فى هذا النثر المعقد الممجوج .

وألف حافظ فى صباه كتاب « ليالى سطيح » نحا فيه منحنى وأسلوبا مسجوعا لعل أقرب صورة إليه ، وأقرب أسلوب له ، حديث عيسى ابن هشام . وهو فيه مقلد للقدماء بعيد عن المحدثين ، حريص على اللغة وألفاظها ، أكثر من حرصه على المعانى والصور والأخيلة العالية .

***

و بعد ، فهذا حافظ صورناه بقدر ماعرفناه وعرفنا شعره ، وأوفى ما يقال فيه إنه شاعر مصرى بكل ما تحتمل المصرية من معان و إنه فى الشعر الحزين من أقوى الشعراء وإنه شاعر فحل جزل اللفظ جميل الأسلوب . رحمة الله عليه م ؟

الفهرس

مطبوعات المعهد

كتب تم طبعها :

محاضرات فى القانون المدنى العراقى	منير القاضى
محاضرات فى القانون المدنى اللبنانى	الدكتور صبحى المحمصانى
محاضرات عن معروف الرصافى	مصطفى على

كتب تحت الطبع :

مصادر الحق فى الفقه الإسلامى	الدكتور عبد الرزاق أحمد السنهورى
محاضرات عن حافظ ابراهيم	أحمد الطاهر
محاضرات عن جميل صدقى الزهاوى	الدكتور ناصر الحانى
تاريخ سوريا من الاحتلال حتى الجلاء	الدكتور نجيب الارمنازى
محاضرات عن مسرحيات شوقى	الدكتور محمد مندور
تاريخ العراق بعد الحرب العالمية الأولى	عبد الرحمن البزاز

دار مصر للطباعة
١ شارع كامل صدقى بمصر (الفجالة)